فكري فاروق

الحياة سيرًا على الأحبال

رواية

obeikan.com

الكتـــــــاب: الحياة سيرا على الأحبال

المــؤلـــــف: فكري فاروق

تصميم الغـــلاف: مروة فتحي

المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقــم الإيــداع: 2017 / 4191

الترقيــم الدولــي: 3 - 166 - 779 - 977 - 978

الإخــراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0227931911 - موبايل: 01001631173

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

obeikan.com

فكري فاروق

الحياة سيرًا على الأحبال

رواية

obeikan.com

obeikan.com

الإهداء

لكل من أضاء لي مصباحًا ليبدد عتمة الطريق، لكل من دفعني للأمام؛

زوجتي المضحية بحقها في أوقاتي

بنتي التي تحتاج إلى اهتمامي

روح أخي محسن

أصدقائي، أخواتي، أقاربي، المؤمنون بموهبتي ولا يبخلون عليَّ بالتشجيع..

obeikan.com

obeikan.com

"هبوب الريح"

-عندما تسير على الحبل المشدود بين الجبلين، أولًا احذر وقبل أن أكمل حديثي معك أن تعتقد أني مهرج أو بهلوان، فالأمر خطير جدًا ومعقد لدرجة أعظم من أن أربط نفسي بحبل أمان يمنع سقوطي الذاتي، سقوط الجميع، سأحكي لك الحكاية بالتفصيل لكن أرجوك أعطني ثانية واحدة لأستجمع أشلاء قواي التي بعثرها هبوب الريح، فالتوازن يحتاج لأعصاب من حديد، سأشرح لك الأمر حالًا، وقبل أن تمل التفاصيل إذ تعتقد أنها لا تهمك كثيرًا، لكني أؤكد لك أنها تهمك وتهم الجميع بلا استثناء، أعذرني لن أطيل عليك، فالأمر ببساطة إن حبل الأمان يقلل نسبة المشاهدة، فتقل الإثارة وهذا يهدد اللعبة بأن تفقد أهم ميزاتها وهي الإثارة، عندما تبدأ الحركة وتسير على الطريق، بعدة خطوات تبدأ اللعبة، سترتفع أصوات النبضات الهلعى، وأصوات أطفالك الجوعى.

-.. ... .

-لا، لا لم أنجب بعد، فحمل زوجتي الأول سقط في مظاهرة عمالية.. اسمعني حتى النهاية، فالقصة هي بالأساس حكايتي كواحد منهم،

كلهم أنا وأنا كلهم، هل تعلم؟ بالأمس أكلت بالنهار وجبتي الأولى، وأثناء نومي بالليل أكلت وجبتين، وبندفة قطن مبلولة ضمدت جراح الأمس الخائر، المهم لنعود إلى اللعبة، عندما يزداد النبض ستتنفس سريعًا، ستشعر بأن البحر يسحبك ويضربك بأمواج من عدم الثبات، لن ترى شيئًا ثابتًا تقيس عليه موضعك، عدة خطوات أخرى ويزداد الضغط فيتأرجح الحبل الذي يكاد يرتخي كلما تصلبت شرايينك. يتصاعد اللهاث فوق الحبل وأنت تسير ببطء والحبل يتأرجح.. ولن تعود إلا بالخبز على أية حال، أسير وأتغاضى عن نظرات البعض، يتمنون لو أسقط، أراهم في الوقت المستقطع من زاوية أخرى عرايا ينحتون الصخر بأسنانهم يخشون الفاقة، تنخر كالسوس عظامهم وتحت الجلد المكدود، أغبياء لأنهم لا يدركون أن بسقوطي سيفتتح مهرجان السقوط الجماعي، مررت على شبورة، بسببها لم أعد أرى الحبل اليومي، ومن شروط اللعبة ألا تسقط كي لا تموت، ومن ثوابتها أنك لن تسقط أبدًا لأنك أقل من أن تموت، فجلست على قارعة خبر قرأته بالأمس في جريدة ملقاة بين عيني والطريق، أن هناك شمسًا تشرق كل صباح، لكن من أين تأتي وإلى أين تذهب لا أعلم، هل تسمعني سيدي؟ يبدو أن القصة ليست مهمة حتى الآن، لو ركزت معي قليلًا ستكتشف أن اللعبة مثيرة وتنتزع الدهشة من العيون، سيدفعون أكثر، كلما زاد الألم، كلما احمرت أساريرك، كلما تفصدت حبات العرق من

قميصك، كلما زاد احتمال سقوطك، الأمر ملهم جدًا لدرجة أن تجعل ذلك الكاتب الجالس هناك في زاوية المقهى أن يضع السيجارة ويكتب مرثية في الرحمة، وفي رجل اعتاد الحياة سيرًا على الأحبال، اعتاد السباق الدامي نحو الموت، التراهن الخاسر على صمود ريشة في وجه الريح، سيسحب كاتبنا الراقي الدخان، فيملأ رئتيه، فيصبح المشهد في صدره أكثر ضبابية، مبهمًا، كأن تتخيل أثر صهد الحر على العمال وأنت في مكان مكيف، أو أن تتصور طفلًا يتضور جوعًا وأنت جالس في أفخم مطعم مثل الذي نجلس فيه الآن.

-..... ....

-يجب أن أكمل مشواري، سأكمل بلا توقف ولا مشكلة في الشبورة، فأنا حتمًا لن أضل الحبل ولن أسقط، فجميع الاتجاهات أحبال.

-.... ....

-آه صاحب المقهى السيد سامح ينظر إليّ، لكني اليوم أجلس معك كزبون ولست كعامل عنده.

-.... ....

-اعذرني سيدي على الإطالة، فالأشجار هناك في القلب تموت من تراكم العفر والأدخنة، تموت الأمور البديهية، حتى أنا وأنا ظل لرجل باهت يسير على الحبل أكاد أن أموت، للعلم طريق الذهاب يختلف كثيرًا

عن طريق العودة، سنعود إليه في آخر القصة، هل تعرف يا سيدي أن الرجال في الضفة الأخرى، حيث أعيش، ممصوصو الوجوه، دائمًا ما تفوح منهم رائحة العرق، يشبهون الأشباح هم أشباه أحياء، الواحد منهم مستعد أن يفعل لك الكثير بمقابل زهيد، ولن يمكر معك ولن يطمع ولن ينظر إلى طعامك ولن يطمح في أجمل أحلامه أن يمشط شعره مثلك، فقط كل ما يريده من أجر هو عدة أرغفة وقدر مناسب للكرامة يسمح له بالتوازن فوق الحبل.. نظراتك في الساعة الذهبية سيدي تقول إنك مللت مني وليس لديك وقت تضيعه معي.

-..... .....

-لا يا سيدي، وقت المدينة ليس كالسيف بل كدانة مدفع تنفجر في الجميع، أتدري نحن لا نحمل الساعات ولا نعرف الزمن، نحن الرجال اليوميين، ليس لدينا ماضٍ يذكر ولا مستقبل نتوقعه، لا نملك إلا اليوم المنقضي على الحبل.

-..... ....

-حاضر سيدي سأبعد عن الرمزية والكلام المبهم وسأحكي لك الحكاية من أولها وحتى لحظة هبوب الريح.

"الطريق"

في البدء كانت الوردة البيضاء تقص شرائط الربيع، شاهدت إشراقها على أعتاب المصنع، نعم هي، لا شيء تغير سوى أنها أصبحت ناهدًا إلى حد ما.

-دعيني أخمن آنستي، ألست تلك الفتاة ذات السبع سنوات المعلقة بين قوائم سياج الشرفة المواجهة لبيتنا، مرت خمس عشرة سنة وأنتِ تحتفظين بذات العينين النجلاوين، والشعر المضموم النائم علي وجنتك اليمنى، نفس السحر ونفس البريق، لكنه يبدو لي الآن يرتعش، يتأرجح بين الحلم وواقع كالكابوس، كان وجهك أكثر استدارة مما هو عليه الآن، وأنفك أقصر، وشفتاك مضمومتان مدورتان كتفاحة البخت المغمورة بالعسل الأحمر، أذكر أنك كنت مدللة، أمك تناديكِ كلما نزلت عيناك الحلوة لتمشي بين الناس في الطريق "سلمى أدخلي يا حبيبتي"، كانت تخشى من حسرة عصفورة حبيسة تشاهد الطيور المنطلقة.

-ياه هل تذكرت كل هذا؟

-نعم بل أذكر الكثير، كان أبوكِ يدخن السجائر في الشرفة كل مساء، يرتدي ملابسه الداخلية البيضاء وساعة جلدية بنية وساعدين مكسيين بالشعر الأسود، كان إذا دخل أثناء وجود أمك في الشرفة تخرج منها لم أرهما مجتمعين يومًا في الشرفة، أما أنت فكنت حائرة بينهما إحدى عينيك على اليمين والأخرى على اليسار، ولم أعرف يومًا من منهما كان يمينًا، ومن الذي كان يسارًا، عمومًا غير مهم، المهم أنك معنا الآن بالمصنع.

-كم أنا سعيدة يا أستاذ.

-عماد، مهندس عماد أعمل مشرفًا على خط إنتاج هنا.

-تشرفت بك.

- أرجوكِ يا آنسة احذري العمال هنا، فهم كالنمل، كثيرون ونهمون، كأي فقراء وخلافًا لكل النمل، فهم يتقاتلون من أجل رغيف الخبز، فقد توشي بك إحدى صاحباتك لمدير المصنع أو حتى لأصغر مشرف هنا، المهم أن تكسب على حسابك بضعة جنيهات زيادة، المصنع فيه ثلاثة طوابق، أرجوكِ ألا تنزلي الطابق السفلي أبدًا، فهو مليء بالظلام.. والرجال المتحرشون، سيخدشون حياءك.

هرولت تنقر الطريق وتسحب ظلها وتركتني وحيدًا أحدث نفسي كالمجانين "سلمى نسيت أن أعرفك أكثر بنفسي، فأنا.. أنا، ماذا أنا؟

ما أنا إلا لا شيء هنا بين آلاف اللا شيئيين.. لست متشائمًا ولكني إلى حد كبير أسمي الأشياء بأسمائها، الأجور هنا ضعيفة، يكفيني أجري بالكاد، ماتت والدتي منذ عدة سنوات وأعيش مع أختي الصغيرة سعاد، أتمنى أن تكونا صديقتين ذات يوم" للأسف ابتلعتها البوابة الحديدية الكبيرة ولم تسمعني".

***

أيتها الملاءة الباهتة المعفرة، تلبدت خيوط أنسجتك، أصبحت مهترئة، أذكر أن أختك الأولى ظلت على السرير لسنتين متصلتين حتى ذابت في مكانها، نعم أعتقد هذا فأنا لم أخلعها ولم ألقِ بها في القمامة، لكنها اختفت، كيف تليق مثلك بأميرة ذات عينين نجلاوين مثل عيني سلمى، هل سترضى بي؟ هل سيأتي يوم ما وأتوقف عن أسوأ عاداتي، الخيال المحلق في ذلك العالم الغامض في سقف الغرفة، كم رأيت فيه من نساء، مختلفات الشكل والأحجام، من كل بلاد العالم، ونساء شارعنا اللواتي لا يشعرن بأي غضاضة إن انكشفت أجزاء من أجسامهن، بغير عمد وبلا مبالاة، كم مارسن عليّ أساليبهن التقليدية في الإغراء والإغواء، كم ضاجعن خيالي منتشيات، سبحان من نجاني في مرات كثيرة من كسر الحاجز الصلب من الرهبة، رهبة الوقوع في معصية الغوص في الأجساد، فمن يتخطى الحاجز سيعتاد اللعبة، سيدمنها!

نساء المصنع أكثر جرأة من السيدات بالبيوت، ذات مرة طلبت مني إحداهن أن آت لبيتها كي أشرح لطفلها الحساب.

-لا أملك ثمن الدرس الخاص.

إنها فقيرة وأنا فقير، ومن يشعر بالفقراء سوى الفقراء، ذهبت إليها وكان طفلها ماكثًا بالحارة، يجلس على الرصيف، حافي القدمين يرتدي ثيابًا بالية، هجرت ملامحه البراءة، كمصباح هجره النور، لا هي نادته ولا هو هب يتحرك من مكانه صعودًا، أجلستني وجلست بجواري على الكنبة الخشبية ذات المرتبة النحيفة التي ضغط مسامها زمان ثقيل، وأخذت تحدثني عن آلام الوحدة، أن تعيش الأنثى بلا ذكر في عالم مملوء بالشياطين وبالفوضى، تقول: إنها تحاول الحفاظ على شرفها ويدها اليمنى تهرول على فخذي تطارد الفريسة، فجّرت فيّ أنهار الشهوة، لكني أجبن من أهدم الحائط، حائط الرهبة، انسلت منها كفتاة عذراء لم تلمسها إلا يد أمها وعروستها، حينها خافت المرأة أن أفضحها وأن أحكي للعمال حكايتها، قالت إني راودتها وهي رفضت، الجميع يعرفونها ويعرفوني جيدًا، لكن المشكلة الكبرى أن العاملات بعدها انتابتهن حالة من الهياج والجرأة، مارسن هواية التراهن على أغوائي، واحدة تميل أمامي وثانية تحتك بي وثالثة تمارسني بعينيها وشفتيها، أعرضت عنهن كأني يوسف، وما بالنفس ليس بيوسف، إن كيدكن عظيم، لكن كيدي أعظم يا لبؤات، كنت ألملم أثدائهن

ومؤخراتهن وشفاههن في مخيلتي وأعود للغرفة فأظلمها وأطلقهن ككرات لهب يلسعنني بسياط الشهوة يمارسن الفحش معي حتى أسقط في هوة الظلام والإنهاك خائرًا.

***

تذكرت فجأة اليوم أن عمري قد سقط مني سهوًا، نسيت أني لم أتزوج، سلمى ذكرتني أني رجل والرجال يتزوجون، يقول الواقع إن الفقير غالبًا يتزوج الفقيرة، لكن الحكمة تقول: "فليبحث كل منهما عن طوق نجاة".. وللأغنياء في هذا الأمر حكمتهم ومنطقهم أيضًا، فالمال يقترن بالمال أو السلطة.. والسلطة تقترن بالسلطة أو المال، إذًا لا بأس، فالتقبل بي سلمى، وأقبل بها، آه لو ترضى!

أحاول أن أفلسف الأمور وضبط إيقاع أفكاري، أن أضع قطارها على قضبان الأمل لتتم عملية المصالحة، وأسمع التكتكات الرتيبة وأنظر من خلال الرؤية المتصالحة على نهاية طريق قد بدأ على القضبان وسينتهي على القضبان، أفشل دائمًا حتى في رسم طريق واهٍ لأسير عليه، لا أعرف لماذا حديثي اليوم مشحون بالنكد وبالطاقة السلبية، أنظر لنصف الكوب المملوء، إنه مملوء جدًا يا أيها الغافل، تكلم عن نفسك قليلًا ها تفضل معك الميكروفون!!

نعم أنا عماد الفيلسوف، الفنان، مهندس النسيج الذي كان يستمتع كل مساء بالأمل وهو يحتسي الكلمات الثكلى من كتب المنهج المملوءة بالأوهام، الحب لوطن نحن فيه الشغالات لملكات النحل، ليس لنا أي حقوق، أشعر بأني فاشل بشكل ما، ورغم هذا كنت أتمنى لو تعيش سعاد تجربتي وتستمتع بالوهم وبالأمل، آه آه لنعود لخشبة المسرح، أنا الشاب الأجمل على الإطلاق، إنهن يقلن ذلك، عيناي عسليتان وشعري أشقر ناعم يلمع بغير زيوت، وبشرتي بيضاء وجسدي منحوت كعارض أزياء، بلا أزياء طبعًا، فأحدث بنطال عندي اشتريته منذ ثلاثة أعوام.

ربما مشكلتي الكبرى أني أكره المدينة، إنها سجن كبير، أحاول أن أجد لي مساحة فيها، أسير في الطرقات ليلًا بعدما يقل الزحام ويختفي الضجيج، أشارك القطط الضالة في عالمها الخاص، تستخلص الطعام من فضلات المطاعم الرخيصة، والفئران السمان تتحرك بكل بساطة على الجدران، غير عابئة بالقطط ولا بالمارة مثلي، أسمع الأصوات وشجار حيوانات الليل في الشوارع المظلمة، أخرج للشارع الرئيسي الذي يفضي إلى الكورنيش، أشاهد الأضواء وأشعر أنها تكرهني وتتحداني، لا أنتمي حقًا لعالم الأضواء، إنها مجهزة فقط ليشاهد الأثرياء الأزياء المعروضة، لم أبال بها رغم شعوري بأن المصابيح ترمقني باستياء، نظرت لفتاة صناعية ترتدي ملابس داخلية شفافة، تبين حلمتين ورديتين صناعيتين ناتئتين، اخترقتُ زجاج المحل واقتربتُ منها

فوضعت كفي على خصرها النحيل الوردي، ومسكت ذراعها الأيمن المنثني قليلًا كأنها تمسك مروحة صينية، لكنها أشاحت بوجهها بعيدًا عني، حتى أنت أيتها التمثال البلاستيكي، صاحب المحل يطل إليّ من خلف زجاج المعرض، لسان حاله يقول لي: "أنت تشغل حيزًا عرضه نصف متر وطول متر وخمسة وسبعين سم يمنع المارة من رؤية أزيائي، لكزني حيائي وهشم زجاج مخيلتي الهش "مجنون أنت وسكير أدمنت الوهم"، انزلقت رويدًا نحو النهر، ما زال يتسع لي رغم كل ما يحيط بي من هم وألم، يقول لي ما أنا إلا أنت، يموج فينا الغموض والغضب، وأقول له: لا هناك فارق مهم هو إني مجرد قطرة بائسة منفلتة، دعني أقف أمامك وأقول لك إني لا أخشاك أبدًا، كم تمنيت لو أموت غريقًا لولا الألم والخوف، على أية حال سأعود كالعادة أدراجي فأنا لن أترك أختي الوحيدة في هذا العالم اللا إنساني، سعاد هديتي الكبرى.

أعلم يا سلمى أن تلك الصورة للوردة البيضاء النابتة من طمي الذاكرة لم تعد تمت لك بصلة الآن، عكرت مياهك الصافية أخلاق أبيك البخيل الغضوب، وانفصال أمك التي حاولت الانتقام منه وإذلاله بكل الطرق، وشجارات كثيرة بينهما تنهك النفس، وشتائم وقضايا لم تبت فيها المحاكم حتى اليوم، كنت أعرف أخباركم جميعها من الحاجة فوزية جارتنا، على أي حال أنا أرى أن قدومك هنا للمصنع لتمضغك التروس يثبت أنك طاهرة نقية، لكن ربما ستكون هناك مشكلة كبرى

بيننا، أنك تحملين كمًا من العقد والخبرات المضللة، ستكون منغصة، لكني سأخوض غمار البوح والمسافات بمجدافي البالي ولن أبالي بكل ما سبق، سأطلب يدك، في ليلة هي الأجمل وستدمع أمك وأنا سأتأثر وأكاد أن أدمع، سأجعل ركبتي اليسرى تقبل أرضك وأقدم لك وردة تليق بك، وأقول لك: "هل تقبليني الراعي الوحيد لبسماتك ووروداتك ومساءاتك الوردية؟".

***

أنا إنسان أجاد السير على الخط الفاصل بين الطهر والرذيلة، لم أسقط يومًا في إحدى الهوتين، ارتضيت لنفسي بذلك القدر المتساوي من الإيمان والفسوق، وأعلم يقينًا أني لست سيئًا جدًا ليحرقني الله لساعة أو ساعتين في الجحيم، الجحيم الذي حمّيت ناره لآلاف السنين، ربما لا مشكلة لدى أي إنسان عرفني أن يقبل بي كمواطن صالح في الجنة، حتى لو أكون فيها مجرد خادم لدى أحد الأبرار.

كان شيخ المسجد يحدجني بعين ناقدة ووجه متجهم، لم أفهم لماذا راودني ذلك الشعور بأني ضيف ثقيل غير مرغوب فيه، حقيقي أنا لم أصل صلاة واحدة منذ ثلاثة أشهر، لكن لا أعرف ماذا حدث لي وأنا سائر بجوار المسجد، كان يخرج من بابه ونوافذه المشرعة دخان يحمل الضوء الأصفر ورائحة تقول: إنه بخور المسك قلت لنفسي لماذا لا أدخل هكذا ودون تفكير، دخلت للميضاء وتوضأت، نسيت ترتيب

غسل حواسي الخمس، ربما لو حدث حوار جدلي بيني وبين ذلك الشيخ الحانق دون سبب مفهوم لقال غسل اليدين أولًا وأقول له: اعتقد غسل القلب أولًا، أنهيت الوضوء وأنا لا أشعر بالمعضلة فالله أكبر من أن يرفضني لخطأ بسيط في الترتيب، المهم أني نظفت كل أعضائي ثلاث أو أربع مرات لأزيل العالق من أوساخ الشيطان، ووقفت خاشعًا أصلي صلاة مودع، كم كنت مهمومًا وحيدًا قبل دخولي المسجد، الآن استنشق هذا البراح وأوسع له صدري، ولكن هيهات لكلب ضرير مثلي أن ينجح في اصطياد الهرة، وكيف لشيطان محترف الإغواء أن يتركني أتذوق حلاوة الفرق بين الصخب والسكون، فذكرني أني على جنابتي منذ ليلتين ولن تصح لي صلاة ولا وضوء، لم أبال بكل هذه الترهات، سأرجمه بجمرات عنادي وإصراري، وسأستمر في الصلاة سأصلي تحية المسجد مرتين، وسأصلي السنة والفريضة وسأعتبر نفسي من أصحاب هذا البيت رغمًا عن الشيخ العابس والشيطان، أذكر أني تعرضت لموقف مشابه حين مات أكثر إنسان ملأ مساحة وحدتي ببساتين طيبته ولطفه، المهندس مدحت، جريت لألحق بصلاة الجنازة، ونسيت تمامًا أني على جنابتي، إنه صديقي الوحيد في المصنع، أو لأكون صريحًا أكثر الموقف لم يدع لي فرصة للاستحمام، وقفت بين المصلين ألوم نفسي كثيرًا وما زلت ألوم نفسي، كيف تصلي على صديقك الوحيد وأنت جُنب، كم أحقد على أقراني بالشارع الذين يروحون للصلاة في المسجد بعد كل أذان، نعم يروحون هكذا وبكل

بساطة، دون أي معاناة وحروب نفسية مع إبليس، ترى وهم واقفون عند الضفة الأخرى من المسألة يحقدون عليّ بسبب تطلع الفتيات بالشارع لي؟ نعم ربما أنا جميل الصورة، لكن لا تنسون.. الصورة فقط، ولا شيء آخر.

منذ وضعت تلك السيدة الأربعينية "سنية" أناملها على فخذي وأنا لست أنا، لقد عفرتتني جعلت شياطين الكون تلبسني، لا شيء مطلوب مني سوى أن أذهب لها مرة أخرى وأقول لها "سأشرح لطفلك كل شيء عن الحساب والمواد الأخرى سأشرح بضمير حتى لو كان يلعب بالشارع ولا يبالي بوجودي، لا يهم المهم هو أن أفعل، إنها امرأة ضعيفة مكدودة مخذولة، هجرها زوجها بعدما ناء بحملها وبنفقاتها ورضيعها منذ عدة سنوات، ربما مارست الجنس مع ثلاثين عاملًا من عمال المصنع، ليس حبًا في الجنس بقدر احتياجها لأشياء أخرى مثل أن يلاطفها رجل بعد إهانات وتقبيح زوجها القديم لها، أو أن تنتقم منه بأن يعرف العالم أجمع أن أم ابنه الوحيد فاحشة، أو ربما تقف في وجه السماء وتصرخ رافضة تدابير القدر.

لماذا لا أفعل، لو كنت في زمن إقامة الحدود لاحتملت الثمانين جلدة، كما يحتمل إنسان يكاد أن يموت عطشًا الثمانين جلدة من أجل شربة ماء، لكني لا أنسى حائط الرهبة ولن أسقطه هكذا ببساطة من أجل سيدة لاكها كلاب المصنع، سأظل ماشيًا بعيدًا عنها وعن مثيلاتها في

الحيز الضيق من ظل الحائط السابق ولظى الشهوة.

عشرات البقع من المني صفّرها القدم تزيد اتساخ ملاءتي، سعاد لا تعلم شيئًا عن غرفتي، ولا تدخلها فلا مكان للملائكة في وكر الشيطان، السجادة الحمراء المنحولة ككلب كساه الجرب، وأعقاب السجائر المنطفئة في كل مكان على البلاط الأسمنتي القديم المليء بالنقر، وعلى الجدران، وكذلك معلقة على الجدار الخارجي المحيط بشرفتي تسكن الفواصل الأسمنتية بين قوالب الطوب الأحمر.

الشقة بالطابق الثاني تعتبر العنوان الرئيسي للبؤس، جميع أثاثها متهالك، منه ما هو مكسر ومنه ما ذهب لونه ومنه ما بلى قماشه، أحاول أن أحافظ على نظافة غرفة سعاد والردهة، دعنا من الشقة فسعاد جائعة الآن وقت الطاهي الكبير "عماد الحلواني" سأطهو لك يا حبيبتي اليوم أكلة ملكية تحبينها جدًا لم تتذوقي الطعام من أي يد غير يدي من بعد وفاة أمنا، سأقطع البصل والطماطم والفلفل الأخضر لقطع صغيرة وأقوم بتسبيكها ثم أنثرها على البطاطس المسلوقة والباذنجان المشوي على النار، أعلم أنك تحبين أكلاتي وأعلم أني أصنعها لك أغلب أيام الأسبوع، لكنك دائمًا سعيدة بها، ثلاث سنوات وأنا أب وأم لك حبيبتي، أنتِ أطهر بكثير من أن تكوني شقيقتي، لكني فخور أني أخدمك يا مولاتي الأميرة، ومستعد أن أموت من أجل بسمتك الجميلة، لكن لا أعرف لماذا دائمًا تحرجيني وتقولين لي: لماذا لا تصلي مثل

عم إسماعيل، أوقات كثيرة أغتاظ منك وأشيح عنك قبحي، وعجزي عن تفسير عدم صلاتي، أعرف أنها لا تستغرق أكثر من عشرة دقائق، أعلم ولكن لا أملك لك ردًا مقنعًا، أحسدك كثيرًا يا ملاكي الرائع، ليتني أكون من ساكني الجنة العليا مثلك.

obeikan.com

"قد تبزغ الشمس"

اليوم في باحة المصنع وقف العمال رفيعو الظل كعيدان قش صفراء جافة تم حصاد سنابلها، ساخطين يرفضون أن يكونوا طعامًا للفناء، هَمَ رهط منهم وأحاطوا بي، يعتقدون أني المفوه المثقف، المتعلم تعليمًا عاليًا، المتعالي عن الفُتات، يريدونني أن أتحدث باسمهم، فقلت لهم وأنا كالنملة ستقف في وجه جيوش سليمان، سأذهب ولكن... فقاطعوني قائلين:

-اذهب ولا تخف إن الله معك.

كان السيد المهيب يخاطبني من خلف حجاب، مكتبه الأبنوسي الفخم عريض وطويل، مترع بالأوراق، يتوسطه حاسوب فضي عليه تفاحة مقضومة مضيئة، وسيجارة سميكة يترنح رمادها بين إصبعيه، وضحايا كثيرة من جنسها تم حرقها بلا رحمة، لم أصدق أنه تخطى الستين عامًا، جسمه يميل إلى السمنة لكنها سمنة رجل رياضي تراخى عن أداء التمرينات والانتظام فيها، شعره فضي ناعم طويل يمشطه إلى الجانب الأيسر، بشرته بيضاء مشبعة بحمرة النعيم، نظر لي من خلف نظارة ذهبية الإطار، وقال متجهمًا متفحصًا إبرة تائهة في كومة قش،

بصوت يحمل سمات القوة والثبات:

-ألست مهندس نسيج وتعمل مشرفًا على خط الإنتاج بالطابق الثاني؟

-بلى.

-تكلم! ماذا يريد هؤلاء الهمجيون؟

كنت كلما تكلمت آتته المكالمات وتقتحم خلوتنا السكرتيرة، ويعبث بأزرار الحاسوب، كانت الدنيا ضوضاء بداخلي وهو ساكن مرتاح البال، بدأت أتلعثم وأعلي صوتي كي يتخطى حواجز الرهبة، يبدو أنه لا يسمعني ولا يعيرني أي اهتمام، زاد نبضي وشعرت بالخيبة والفشل وأني سأعود إليهم حاملًا خفي ضآلتي أمام جبروته، من أنا كي يثقوا بي ويرسلوني لجبهته ومواجهة جيوش غروره، لأعود مهزومًا في نفسي مهتز الثقة، خائر الاعتداد الزائف بنفسي، فصمتُ صمتة قارب يرى أمام عينيه موجة عملاقة كالجبل في الليل بلا نجوم ولا قمر.

نظر لي السيد الذي يحتسي كل صباح عرق سبعمئة عامل ومشرف ومهندس، يراني رافعًا ذراعي الاستسلام أمام سيفه المسلط على قلبي، وفي لحظة مدهشة جدًا توقفت الأصوات والضجيج ورنين الهواتف وهجوم السكرتيرة، وسقط رماد سيجارته بعدما سحب آخر زخات روحها، فألقاها سريعًا في تلك المقبرة الكريستالية على المكتب، وقال:

-اسمع يا!!! .. يا!!.

ونظر مرة أخرى إلى الورقة البيضاء بين يديه مكتوب فيها اسمي بخط ضئيل جدًا.

-آه يا عماد، أنت خريج فنون تطبيقية، ثلاثين سنة، راتبك ألف ومئتي جنيه، سأقول لك كلمة حكمة:

هنا رأيته يتمشى على خشبة مسرح تتبعه بقعة الضوء وأنا جمهوره الوحيد.

-الفرصة قد تأتي في العمر مرة واحدة وقد لا تأتي فإن جاءتك فاقتنصها ولا تفوتها، بين يدي تقرير ممتاز عنك، أنا أملك كل شيء لكني حرمت من الأولاد، وأنت لا تملك أي شيء سوى أنك جميل ومهذب ومثقف، لقد حدثني وليم عزيز عنك وحكى لي كل ظروفك، ربما سيارة وبعض ثياب وتليق بمكانة عظمى، سأجعل منك ولدي وذراعي الأيمن بالمصنع.

الرجل الملعون يلقي النملة الجائعة في جبل السكر، والمقابل أن تتخلى عن فطرتها في السعي الدءوب والعمل وسط أبناء جنسها، جئت ظانًا أن العمال قد أرسلوني للجحيم، وها هو الرجل يفتح لي المغارة، ولكن لتكتمل خطة الشيطان ببعض وساوس تكميلية، فقال لي بكل وضوح وهو واثق ثقة عمياء إني بقليل جدًا من الإقناع سأبيع القضية.

-العمال كالإسفنج كلما ضغطت عليهم تعتصر خيرهم وتقلص حجمهم المتزايد، يبدون كبارًا لكنهم مليئون بالفقاعات والهشاشات، أرواحهم عارية، أي واحد بالمصنع يتمنى لو كان مكانك، أكثرهم سخطًا هو في الحقيقة أكثرهم طمعًا، إنهم يدفعونك للمخاطرة فإن نجحتَ استفادوا هم وإن فشلت اتقوا سوء العاقبة، يا ولدي لو تخليت لكل واحد عن جزء من أرباحي لازدادوا طمعًا ولن يغنيهم أبدًا، كل من جاء للعمل عندي بالمصنع يعرف جيدًا الرواتب، وحجم المجهود ومواعيد العمل التي تستمر للساعة الرابعة عصرًا، لكنهم فور أن يثبتوا أقدامهم يتحولون لأسود، يضغطون بتكتلهم وتكاتفهم، إنهم مبتزون.

ما رأيك في منطقه يا فيلسوف؟ إنه السيد القدير فصيح المنطق، استطاع قذف جميع أوراقي إلى السماء وجعلني أشاهد سقوطها تباعًا على أرضه، حروفي الثكلى تذروها الرياح، وأتبقى كورقة بيضاء تنتظر أن يخط عليها كلماته، أثار أطماعي ورفع سقف طموحي لآلاف الدرجات، وجعلني أرى العمال طماعين، جشعين، ماكرين، كريهين، خرجت من عنده مترنحًا أسير على حافة الأشياء ونقيضها، القوة والضعف، الذكاء والغباء، التمسك بالمبادئ والتخلي عنها، قناعتي بذاتي وطبيعة دوري، هل أرسلوني له فارسًا أم فريسة ليلتهمها؟ سحب سيجارة أخرى ليحرقها، ثم أشار صوب الباب بيده قاصدًا "هيا تفضل".

ما زالوا بالباحة لابثين متلهفين لسماع أخبار مفرحة، اللعنة عليه وعليهم وعليّ وأنا مهندس أصبح كسيدة انكمشت معدات أبنائها جوعًا تساومها كلاب الشوارع على شرفها، كانت سلمى واقفة كالديك الرومي المنفوش فخورة بواحد يحبها.. يحبه الجميع، يرونه بطلًا أو مغفلًا.

خرجت أبعثر أعبائي، أحاول إحداث خرق في جوال على ظهري مملوء بالهموم والآلام، رأيت الشارع مظلمًا لا بريق فيه إلا عيني سعاد البادية في المدى، من غيرك ينتشلني من ضياعي كل يوم يا صغيرتي الحلوة، سرت على هداهما حتى وصلت الكورنيش، كنت أريد أن أبكي، أصرخ، ربما لو كنت أضمن أن يجعلني الرجل ابنًا له حقًا لبعت كل شيء، لكن تخيل إن غدرت بأصحابي واكتشفت بعدها أنه كان يخدعني ويتلاعب بي، سأخسر حينها كل شيء، وإن وقفت إلى جوار العمال وغضب مني الرجل وطردني هل سيعوضوني بشيء؟ لا أعتقد فهم لا يملكون أي شيء، اللعنة على الرجل الشيطان وعلى العمال الأباليس.

***

شعر أشعث فوق رأسها وصدر ممسوح وجسد هزيل، مؤكد أنها لم تكن يومًا فخورة به كما تفعل البنات عندما يتكور ثديهن، معلنًا أنهن أصبحن بالغات تتلاعب بهن الشهوة، تسير حاملة الورد الأحمر المغلف بالبلاستيك الشفاف، تريد أن تبيعني الواحدة بجنيه، كنت أود لو أعطيها جنيهين أو عدة جنيهات، لكن ربما تحتاج سعاد لشيء، لم

تعني لي الوردة أي شيء، يكفي أنها أسيرة الغطاء البلاستيكي الرديء، فقط أخذتها وحاولت التعامل معها كإنسان طبيعي يحمل وردة بلدية حمراء، لكني فشلت، فوضعتها جانبي على السور الذي يجلس عليه الحالمون من طلاب الجامعة، يتركون المدرجات خاوية ويأتون هنا للعق الرحيق المسكر من عنق الورد الأحمر، ثم سمعت صوتها يناديني وأنا مطرق رأسي أرضًا.

-مهندس عماد.

هذا صوت سلمى حقًا، فرفعت رأسي وكدت أشهق لولا خوفي الدائم من إعراض من أهتم بهم، هناك شيء مختلف جدًا وفرق عظيم بين أن تأتيك الأنثى أو تأتيها أنت، الآتي غالبًا ما يكون كالملك المهزوم يقبل بأي شرط للتصالح، هناك قوة عظمى تأتيك إن كانت هي من بادرت، قلت لها بغير صوت أنت وردة حمراء ولكن أعرف أن الأشواك نائمة في ماضيكِ، أرى في قعر عينيك السوداء كم المشاهد المؤلمة التي شاهدتيها في رحلتك حتى وصلتِ إلى بوابة المصنع.

-سلمى أيتها الحلوة سأهديكِ أحدث شيء امتلكته في هذه الدنيا، إنه شيء جميل يليق بك، خذي تلك الوردة إنها تشبهك أيتها الجورية!

أعرف أني رغم كل ما بي من عري مادي إلا أني أمثل لك طفرة نوعية، أنا مهندس نسيج وأنتِ دبلوم، أنا مشرف بالمصنع وأنتِ عاملة جديدة، العاملات كثيرات والمشرفون قلائل، لنتخطى مرحلة التفاخر

واستدعاء الثقة المفرطة بالذات، سأمثل اليوم معك دور الأمير في حكاية السندريلا، سأمد لك يدي بجرأة استثنائية وأطلبك لهذه الرقصة، عازفو الكمان يرتدون البذلات السوداء الطويلة من الخلف، وعازف البيانو متأهب، بل هو من سيبدأ العزف "تفضل سيدي ابدأ العزف من فضلك"، الوردة بين خصلاتك اليمنى ستكون العصا السحرية لملائكة الأمنيات، النيل ساحة من ذهب تحفها الأشجار والنجوم، أرضها ملساء حنونة، سأرقص معك على شاكلة الأفلام القديمة، كأغنية "أنا قلبي دليلي مثلا"، نعم هي صورة مناسبة جدًا لما يدور في مخيلتي الآن، خصرك نحيف وصدرك صغير لطيف مثل، الفنانة فاتن حمامة، ترتدين فستانًا أبيض عاري الكتفين والذراعين، وحذاءين أبيضين لامعين ذوي وردتين بنفسجيتين على جانبيه الخارجين، هكذا يليق الذوق مع وردتي، أنت خجولة جدًا لكنك قبلتِ بسهولة جدًا أن أحضن كفك بيدي، تعجبت من جرأتي ومن استسلامك.

-سلمى أنا أتقاضى أجرًا ضئيلًا جدًا بالكاد يكفيني أنا وسعاد.

كانت متقبلة لكل ظروفي وقالت بحماس مفرط:

-إذا وجد الحب فكل شيء بعد ذلك موجود.

-هل وجد الحب حقًا؟

أطرقت وجهها للأرض خجلًا وسكتت، وكثيرًا ما يكون الصمت

فصيحًا، الفتاة متلهفة لبدء الحكاية، هكذا تسير الأمـور كلما قل العمر، حيث نرى الأمور بنظرة نقية سطحية، وما أجمل القشور في نظر الحالمين، لكني كبرت كثيرًا وأعلم يقينًا ما سيحدث إذا طرقتُ باب بيتهم، ستقول أمها في وجهي "إننا نشتري رجلا"، وتقول في باطنها "لا يعيب الرجل إلا جيبه"، وجارة شامتة تصبرها بخبث قائلة: "ظل رجل ولا ظل حائط"، لذلك اكتفيت بأن أوعدها بأن أذهب في يوم ما، وتحججت ببعض التسويفات تساعدني على السير قليلًا على الحبل الواصل بين العالمين، استطيع في هذه المسافة الزمنية أن أهديها الـورود والـذرة والترمس والقبلات غير البريئة بالمرة، أعـرف أنهم يفتحون شفاههم أثناء القبلة، قليلًا، مواربة، نعم هكذا، يا لها من لذة تجعلني ثملًا، أثمر خداها قرنفلتين، يا لروعتهما، ضميني الآن بقوة أو تمهلي قليلًا، ليس لدرجة أن أفقد الإحساس بالتفاحتين، اقتربي حبيبتي قليلًا قليلًا، آه ما أروع هذا، ما أجمل هذا الخيال في صحبتك أيتها الرقيقة، آه لو استطعت بمهارة واقتدار تطبيق خبراتي النظرية والخيالية ونقلها للواقع وخزنت بذكاء كل هذه الذكريات في عقلي كي أطلقها كالعادة، لتطير ككرات اللهب في سقف الغرفة لتذيبني مرات ومرات!!

ربما سيأتي اليوم الـذي أطـرق فيه البـاب وأخلع معطف اللذة الغير محمل بأي أعباء وألقيه وأدخل، سيتغير سقف غرفتي ليصبح وكرًا

للأفكار والهم، لأحلل التصرفات الغامضة باستمرار من البنت وأمها، وبالطبع لن أفهم أبدًا أنهما يقوداني بشكل خفي لتحقيق أهداف ما في عقليهما تتفقان عليها، وسأفكر كثيرًا كيف سأجدد الأثاث وكيف اشتري الثياب الجديدة وبذلة الزفاف، وكيف سأشتري لها خاتمًا ذهبيًا وحوالي مئتي كيف أخرى تطير كالباعوض في السقف الذي كان سابقًا حديقة تجمع أجمل السيدات الفاتنات، يركبن الأراجيح، يسبحن في البحيرة عاريات، يدعونني لغداء الشطائر وشراب النبيذ المسكر، كل هذا سيتبدد بعد ما أتخطى الحبل الواصل بين هناء الحب وشقاء الالتزام.

***

تخيلت بسذاجة مفرطة أن التسويف سيؤجل التفكير في أي شيء وأني سوف أنهل من نبع العسل بلا حساب، لكن الأمر لم يكن أبدًا بهذه البساطة، هيهات أن يهنأ منحوس مثلي فقد هشمتُ قوارير النساء المعلقات في خيالي وسقف الغرفة دون قصد وبدأت التفكير بجدية في كيفية تنفيذ وعودي، وكان أول ثمار العمل المضني لعقل يفكر بكل طاقته، هو فكرة العمل بالمساء، سبعمئة جنيه أخرى ستغير الحال كثيرًا، لم أكن لأفكر في مثل هذا الحل من قبل، فلست من يقايض عمره بالمال، لم أكن لأفكر في دخول الطاحونة بقدمي.

أذكر أني كنت قد قرأت رواية لم تعجبني حين قرأتها، اسمها الواجهة

للكاتب يوسف عز الدين عيسى، شعرت بأنها رواية مملة جدًا وكثيرة التكرار، تحكي عن رجل وجد نفسه فجأة في مدينة ولا يعرف من أين جاء ولا يذكر أي شيء عن نفسه، يرمز به للإنسان عامة، يحكم المدينة السيد ويقصد به الله، وكان يجب على الرجل أن يعمل في الطاحونة لكي يدبر نفقاته، والرجل المسؤول عن الطاحونة يضربه بالسوط بصورة مؤلمة ولا يجد لها تفسيرًا، يقول الله تعالى: "لقد خلقنا الإنسان في كبد"، الكبد هو الطاحونة، استدعيت هذه الصورة في ذهني ورأيتني ذاهب لأشغل منصبي الجديد في تلك الطاحونة، والرجل العامل عليها سيبدأ في ضربي، سيضربني بالسوط، بالإنهاك، باغتيال عمري، صحتي، بدا لي كاتب الرواية ساخطًا على السيد، ويبدو كل شيء حولي في المدينة ساخطًا.

مدير المقهى السيد سامح قال لي:

-مهندس ووسيم وتريد أن تعمل خادمًا للزبائن هنا عندي؟

صياغة الجملة ذات مغزى، كلمة خادم هي بالونة اختبار لأبعاد كرامتي، هل سأتحمل عجرفة بعض الزبائن، هذا احتمال واحتمال آخر أنه رجل وضيع ذو تعليم متدنٍ ويريد أن يتشفى أو يشبع عقدة ما عنده، فأتخيله مثلًا يتحدث لأصحابه أو زوجته ويقول لهم "عندي عمال يشتغلون في المقهى مهندسين"، عمومًا هكذا يفكر مجتمع تضرب الأمراض النفسية عقول أبنائه!

-لا ضير في الأمر كأني أخدم الزبائن في روما مثلًا أو باريس.

ابتسم الرجل للطف جوابي ولا يعلم شيئًا عن النيران التي تلتهم قلبي، أنا أقبل بالراتب والشروط ونظرتك التي ستصبح لائمة لي كلما وقفت ألملم كرامتي أو آخذ نفسي، كان اليوم الأول مؤلمًا جدًا ومهينًا كأن تقوم القابلة بهتك بكارة العروس في أول أيام فرحها الوهمي اتفاقًا مع الزوج وأمها.

-أصبحت لا أراك كثيرًا يا سعاد، آه يا وردتي الحلوة أخشى عليك من الذبول بسبب إهمالي وعدم رعايتي لك، أعذريني يا حبيبتي، لكن ربما فستان جديد وحذاء أحمر لامع يربتان على قلبك سيفرحانك جدًا، أنت لا تعرفين لماذا قد يعمل الإنسان لستة عشر ساعة باليوم، غير الوقت المستهلك في المواصلات، وسأحضر لك اللبن كل يوم فأنت صفراء هزيلة.

-حبيبي يا عماد.

- ما رأيك لو أحضر لك عروس كبيرة أو هاتفًا محمولًا سيكون رديًا والأحدث من نوعه؟!

-نعم أريد الهاتف.. لا العروس.. لا الاثنين معًا.

-آه ما أجمل عناقك يا حبيبتي، شكرًا يا ذات البسمة الأروع، سأحضر لك الفطور وألحق بأول جلدات المصنع.

المشكلة لا زالت قائمة هناك، العمال ينتظرون المفاوض المحترف، والرجل صاحب المصنع ينتظر تمكن ميكروبه من عقل محروم وقلب جائع، أن يتخطى مرحلة الحضانة، ستظهر الأعراض على هيئة سخط دائم على حالي، وحمى من الكراهية لكل أصحابي، ورغبة مستعرة للترف والصعود.

أعرف كيف تفكر يا سيدي، لستَ الطرف الوحيد باللعبة، إن كنت الساحر الماهر الواثق من خداعه، فأنا أقرأ ما يدور في نفسك بكل ذكاء وأستطيع كشف المزيد من حيلك.

كل شيء حولي مقيت والعمال المتعملقون بتوحدهم، يقفون بلا عمل معاندين، وكل واحد منهم يخشى أن يظهر في الصورة، والرجل المرتع بالنعم والأموال أكثر عندًا وتحديًا، أما سلمى فقد برزت من بين الحشد، حشد العاملات، تريد أن تثبت لصديقاتها من خلال نظراتي الخاصة لها أنها حبيبتي دون الجميع، في أيام بسيطة نجحتْ فيما فشلتْ فيه الأخريات، ثلاث منهن ينتظرن نظراتي الكاشفة لمكنوني والفاضحة لمشاعري، ابتسامتي لها، اختلاجة ملامحي.

***

زبائن المحل غالبًا أثرياء، يتصرفون برقي وتواضع، وهناك نوع من النساء غالبًا وحيدات محرومات من الحب، يأتين بصورة شبه يومية،

يرمقنني بنظرات مشحونة بالكلمات والمشاعر، يشربن النرجيلة، يبدين جريئات، أنهن يصطنعن الجرأة لكنهن ضعيفات النفس مسكينات، مصابات بمرض هشاشة النفس والضياع الاجتماعي، يحكي أصحابي هنا حكايات كثيرة عنهن، كل تلك النساء كوم والسيدة الخليجية كوم آخر، فهي تختلف عنهن تمامًا.

نظرت اتجاهي، رفعت حاجبيها المرسومين بدقة ثم سحبت الدخان من خرطوم النرجيلة، كانت شهية، تضع ساقًا على الأخرى فتنحسر العباءة السوداء لتبين نصف ساقها السفلي المصبوب صبًا حتى حذائها ذي الكعب المتعالي حد الغرور، أشارت لي بإصبع منثني، تضع فيه خاتمًا رفيع الإطار ينحسر في العقلة الأولى بجوار ظفرها الطويل الفضي، فنظرتُ لصاحبي وقلت له هذه الطاولة تخصك، فذهب مسرعًا مستبشرًا بمال امرأة خليجية ترتدي عباءة سوداء حريرية، وقلائد من ذهب وعقيق أحمر، المرأة جمرة من نار، ربما أحرقت بنارها عشرات الرجال، مال صديقي عليها حتى أصبح دخان النرجيلة يخرج من بين شفتيها فيصل لأذنه ثم يسير زاحفًا على وجهه ويتخلل شعره الأجعد، ثم رأيت الغلام يأتي مهرولًا ويشير إليّ ثم مال على أذني وقال:

-المرأة الشبقة تريدك أنت.

وغمز بعين حاقدة متحسرة على ضياع الفرصة، شعرت بحيرة مفرطة

فنظرت لصاحب المقهى فأشار بيده أن أفعل ما تريد السيدة بسرعة، لا أشك أن هذا الرجل ليس عنده مشكلة مطلقًا لو طلب منه أن يكون قوادًا، فذهبت للسيدة وقدماي تتخبطان، فقلت لها:

-في خدمة سيادتك.

-إجلس.

كنت قد بدأت معرفة القوانين هنا في المقهى، بالممارسة حينًا وبتصحيح أخطائي أحيانًا، فمهم جدًا أن تميل قليلًا أثناء حديثك مع الزبون، لا تقف أمامه متعاليًا معتدًا بنفسك، يجب أن تشعره بأنه الطاووس الوحيد والناس حوله فراخ داجنة، فكرت حينها وقلت ترى إن جلست معها هل سأجلس مائلًا أيضًا؟

-اعذريني سيدتي لا يجوز للعمال الجلوس بجوار الزبائن بالمقهى.

امتقع وجهها الأسمر البرونزي اللامع، ووضعت خرطوم النرجيلة على الطاولة، فنظرت لصاحب المقهى فإذ به يرميني بنظرات كالرصاص، سأجلس ما المشكلة، لبؤة قادمة من الخليج تريد ليثًا وأنا الحمد لله لست ليثًا ولا تيسًا ولم أركب يومًا فرسًا في المضمار، وصاحب العمل قواد ربما لو اشتهاه رجل لقبل فأهم شيء عنده هو سعادة الزبون، سمعة المقهى، الأرباح الطائلة.

-المقهى يا عماد ليس بعمل بسيط لا تستهين به، ليس الأمر كما تظن

"شاي وقهوة ونرجيلة وبعض عصائر"، إنه كالسفينة، مصاريف كثيرة إيجار يتخطى العشرين ألف جنيه شهريًا، خامات وفواكه وتبغ من أفضل الأنواع، عمال ومحاسب ومحام وضرائب وإكراميات يومية لكل عسكري وضابط يمر علينا، إن قل عدد الزبائن فستغرق السفينة.

استدعي كلماته الآن برأسي وأحاول منطقة الأشياء.

-ماذا تحب أن تشرب؟

-لا أعرف أنا معتاد على شرب الشاي فقط، لنا شاينا الخاص بنا نعده بالداخل ونشربه وقت الراحة.

أخذت تتفحص ملامحي تنظر لعيني تمرر المبسم بين شفتين بلون الشيكولاتة، سائحة، يلمع سيلانها، مفتوحتين قليلًا تتسرب منهما خيوط دخان أبيض برائحة التفاح، تكاد تطغى على عطرها النفاذ المستبد الطاغي.

-أنت أجمل من رأيت من الرجال في هذا البلد، سأمكث هنا بالقاهرة لشهر وأريدك معي في هذه الفترة بأي مقابل تريد، سأحتاجك تساعدني ببعض الأمور.

-لكني أعمل بالصباح في المصنع وبالمساء بالمقهى.

نظرتْ إلى صاحب المقهى نظرةً منادية، فجاء إليها مهرولًا وانحنى أمامها، اقتربت منه ومالت على أذنه وحدثته بصوت أدنى من الهمس

وأعلى من الصمت، نفسها البطيء يخرج زاحفًا من صدرها، شعرت بأنها تضع نابيها في أذنه، تحاول إذابته من الداخل تمهيدًا لامتصاص عصارته، انتهت من تفريغ سمها ثم أفلتته ليسقط دائخًا مترنحًا خائر القوى.

-ابق معها لا يضير في شيء، ما دمت ستحضرها كل يوم فمرحبًا، وهديتي لك، أجرك لن ينقص منه مليمًا.

لم يخبّب الرجل ظني، لكني أفكر في صورتي أمام أصحابي.

-أنا مهندس ولي مكانتي واحترامي، ماذا أفعل لصورتي أمام الناس؟

فنظر لي غير مصدق ما أقول، وعندما شعر بجديتي بدل قناع اللطف بقناع آخر قبيح:

-اذهب ولا أريد أن أراك هنا إلا بعد سفر السيدة.

أخرجت السيدة ذات العينين البنيين المكحلين من حقيبتها الجلدية النبيذية الغامقة هاتفًا محمولًا صغيرًا وردي اللون ماركة سامسونج وأعطتني إياه.

-سأحدثك غدًا وأنسق معك، قل لي ما اسمك؟

***

obeikan.com

يبدو أني ذو قيمة عظيمة، موهبة يعاد اكتشافها الآن، "عارف بيه" يريدني ابنًا له، والسيدة المترفة تريدني مرافقًا لها، هل أنا جميل لهذا الحد؟ ما رأيك يا نرسيس في بعض الاهتمام بمظهرك؟ لعل تزداد فرصك في الوصول لأحلامك، آه لولا احتياج سعاد الدائم لمصاريف كثيرة للعلاج، وهذا دائمًا يعجزني عن شراء ما أريد لكن على الأقل أستطيع غسل ثيابي كل يوم وكيها حتى تظهر بحالة جيدة، وأستطيع حلاقة ذقني كل صباح.

-هل تعرف يا عماد كم أن هؤلاء العمال أغبياء جدًا، يلعنون الحظ كل يوم لكن المسألة ليست بالضرورة مسألة حظ، فمن المؤكد أنهم كانوا طلابًا فاشلين، وإن كانوا ناجحين فهم لم يكونوا مبدعين، وإن كانوا مبدعين فهم أغبياء لأنهم فضّلوا الاستقرار على الطموح والمغامرة، أنا كنت مهندسًا متفوقًا ومبدعًا ومُخاطرًا ومغامرًا، وكل ما تراه حولك ما هو إلا ثمار الإبداع والمغامرة، أرباحي التي أجنيها الآن هي أرباحي أنا وحدي ولن أجعل بعض الفشلة يقاسموني فيها، اسمعني جيدًا يا عماد أنا رجل وحيد أكاد أكون بلا عائلة، حتى زوجتي تعيش معي لكنها ليست معي البتة، نادرًا ما نتحدث، كل واحد فينا يتحرك كجرم سماوي يدور في فلكه الخاص، بعيد تمامًا عن الآخر، ضعفت قوة الجاذبية بيننا، أنا لم أعد مبهورًا بصوتها وتألقها وهي لم تعد تبالي لأموالي بعدما نهلت منها حتى امتلأت، كم أنا تعيس، تعيس جدًا وأتمنى أن

أموت كل يوم، لن تصدق إن قلت لك إن ربما مشكلة مثل هذه المشكلة قد تبدد الملل والوحدة وتسليني، لكني بطل العالم في العناد وسأنتصر سواء رضوا أم أبوا.

العمال بالأسفل يعتقدون أني أفاوض عنهم بكل شراسة، وأنا في الحقيقة أذهب له وأنا عالم أنه يمارس عليّ قدراته في غسيل عقلي، إغوائي، شرائي، وأنا كفتاة لعوب تريد الثراء السريع وتقول لنفسها سحقًا للشرف، تحتاج لقليل من الضغط، فرصة لتقنع نفسها إنها ضحية الظروف، أريد ضغطًا أقوى من مقاومتي، مبررًا يسمح لي ببيع مبادئي وأغض النظر عن مسألة الضمير.

-سأجعل منك ابنًا لي، نعم حقًا، الجميع يحبك هنا، سأجعلك مساعدي بالمصنع مرة واحدة ودون تردد.

أرى الرجل يتوغل بداخلي، يجتاحني، يسيطر بكل كلمة على أرض جديدة بعقلٍ ونفسٍ كالأرض العطشى مشققة وتحتاج لقطرة ماء، يشيد في خيالي مدنًا من الجمال والترف.

أشعر بأن مشكلتي الحقيقية ليست المبادئ، لا ولكن في صورتي أمام العمال، فأنا عالم بنفسي، لن أطيق نظراتهم لي، سيحتقروني، سيقولون إني النذل الأعظم، وربما يبصقون في الأرض كلما رأوني أمر أمامهم.

-ماذا قال لك ذلك الرجل وماذا قلت له؟

الأسطى عطية كضبع يختبئ في الأحراش ينتظر الانقضاض، أول ما نزلت الباحة خرج بسرعة من بين العمال، هذا الرجل كريه ولا أتحمل الحديث معه وكرهت المهمة الموكلة إليّ كلها بسبب أنها جعلتني أتعامل معه كثيرًا.

-الأمر ليس بهذه البساطة، سأقابله عدة مرات حتى يقتنع.

-حقًا؟!

أخذ يتفحص وجهي بلؤم، محاولًا سبر أغواري، قراءة نظراتي والإنصات لنبرة صوتي، لم أكن أعلم أنه خبيث لهذه الدرجة، عيناه المحولتان إلى الداخل قليلًا تقولان لي احذر أن تبيعنا، فقلت له:

-لن أجعل رجلًا جشعًا لئيمًا مثله يهزمني، لكن الأمر يحتاج إلى الحكمة، فذلك الرجل "عارف بيه" عنيد وهددني اليوم ببيع المصنع وتشريد العمال!

امتقع وجهه وانكمش كثيرًا كإسفنجة تعصرها بقبضتيك، أعتقد أن هذه الصورة قد شرحها لي المهندس عارف سالفًا، تقهقر عطية عدة خطوات للخلف وتحصن بالصمت وبالخوف، تضاءل كثيرًا أمام عيني، ربما لو أصبحت مديرًا للمصنع ذات يوم فسيكون قراري الأول هو التخلص منه.. تركته خائرًا مرتعشًا ووليته ظهري وتحركت صوب

البوابة بخطى متمهلة أنتظر رؤية سلمى فلدي خطط كثيرة اليوم، برزت من بين صديقاتها ونظرت لي بنظرة تقول لي أنا هنا، فكان ردي لها بنظرة تفهمها جيدًا ثم انصرفتُ.

انتظرتها على الكورنيش في مكاننا الأول، وتخيلت كثيرًا ماذا سأفعل معها، أريد أن اكتشفها، أن استدرجها رويدًا رويدًا لتجربة القبلة الأولى، باسم الحب، أن تسمع لصوت قلبها، أن تجرب معي لذة العناق، عندما يتلاقى الجسدان لأول مرة، عندما يحدث الاتصال الجسدي، تنتقل المشاعر بسهولة، تنهدم الحواجز يقل الاختلاف، يتوحد الهدف، تصبح مطيعة، لينة، وفي خطوات لاحقة أتحسس بيدي تلك المناطق البارزة التي يطمسها الخمار الفضفاض الطويل، وكل مرة أتحسس أكثر وأتفنن في التقبيل أكثر، وأتوسع في احتلالها حتى أشملها.

ظهرت قادمة من بعيد، تشق الزحام لتبدو كعصفورة تخترق لججًا متداخلة من الحمام والغربان، مرت من خلال الطريق مسرعة تحاول تحاشي السيارات المتوحشة التي لا يكبح جماحها سوى الزحام، قامت الفتاة النحيفة الطويلة نسبيًا بمناورة محترفة وبوثبات واسعة رشيقة كانت قد صعدت الرصيف، جلست بجانبي صامتة بعدما سلمت بيدها، لفت انتباهي هذه المرة أن تنورتها السوداء الفضفاضة باهتة جدًا، يبدو لونها مجربًا، معفرة جدًا من طرفها السفلي، ولاحظت الجورب الأسود الشفاف فيه عدة نقر وفقدٍ لبعض خيوط أنسجته، ولفت

انتباهي أيضًا عطرها الرخيص أو ربما مزيل عرق وضعته قبل الخروج من المصنع مباشرة لتحتفظ برائحته حتى تصل إليّ.

لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد نظرت لعينيها المحمرتين، ترتعش فيهما دمعات لم أثق في صدقهن.

-هناك عريس تقدم لخطبتي ليلة الأمس.

-حقًا!

-أقسم لك يا عماد ألا تصدقني!

لا أعرف ماذا أقول أعتقد أنها متعجلة جدًا فهذه الخدعة عادة تستخدمها البنات بعدما تثق من تملك الحب من قلب عشيقها، أو اختبار لمدى جديته، لكن علاقتنا ما زالت وليدة الأمس القريب وما زالت تتلثم بقماط هش، القليل من الظروف الضاغطة قد تفتك بها، أتاك الموت يا تارك الصلاة، ماذا ستفعل الآن؟ هل ستتخلى عنها؟ أنا أحبها وعملت بالمقهى لأجلها لكني لم أقبض مليمًا بعد، ولم أكن أتوقع أني سأقع سريعًا في هذه الورطة، ما المشكلة لو يحدث هذا بعد سنة من الحب والهناء؟

-بلى يا حبيبتي أصدقك طبعًا واطمئني فلن يأخذك مني مخلوق وسأقابل أمك اليوم وليس غدًا.

ليس لدي سبب منطقي لاندفاعي وتعجلي ربما لأن المباغتة شلت عقلي

عن حسن التصرف، كان من الممكن مثلًا أن أقول لها سأحضر بعد أسبوعين وبلّغي أمك بكذا، لكن يبدو أن هرمون الذكورة الذي يفور بجسدي الآن هو من دفعني هكذا، تحول المشهد الدرامي لمشهد عاطفي مفعم بالمشاعر، كانت ممتنة لي جدًا لدرجة أنها تركتني ألمس كل شيء دون أي مقاومة ولم يوقفني سوى رنين الهاتف الصغير الذي نسيت إنه معي من ليلة البارحة، رغم أن صاحبته كانت ضيفتي طوال الليل في غرفتي المظلمة فتخيلتها كما لم أتخيل أنثى من قبل "مساء الخير أيتها السيدة أنا متأهب لتلبية جميع رغباتك" حاولت لملمة أشلائي أمام سلمى التي لم تستطع مواراة دهشتها.

-هذا هاتف لزبونة خليجية تأتي للمقهى وطلبت مني بعض الخدمات نظير أجر مجزٍ سيساعدنا في تكاليف الزواج.

نظرتُ للشاشة الخضراء المضيئة كان المتصل مدون باسم الملكة، من هي الملكة؟ ترددت في الرد للحظة.

-مساء الخير.

-عماد؟

-نعم.

-تعال الآن أريدك عندي حالًا.

-من أنتِ؟

-أنا الملكة، هاهاها هل نسيتني سريعًا؟ ألم أقل لك سأنسق معك غدًا.

ما زال الهرمون يجري في دمي بنسبة قياسية، أنا مستعد الآن لهدم الحائط.. حائط الرهبة، إنها السمراء البرونزية المتوحشة، لا تريد أن تضيّع وقتها، وأنا شغوف اليوم بتعلم ركوب الخيل.. فرسة عربية أصيلة لا تضاهيها فرسة أخرى.

***

-أنت واهم يا ولدي، ففكرة المبادئ في ذهنك أحادية النظرة ضيقة الرؤية، مثالية افتراضية، لا تمت بصلة للواقع فالمبادئ كالفسيفساء.

كان حديثه بالصباح طويلًا مليئًا بالفلسفة والحكم الفريدة، لكني استدعيت هذه الجملة خصيصًا عندما بدأت الملكة تتحدث عن نفسها:

-أنا كالفسيفساء يا عماد، لوحة خالدة، جعلني الله آية في الجمال والحسن والبهاء، لكن من يدرك الجمال والتحف النادرة، بداخلي متناقضات كثيرة نعم لكنها في النهاية منسجمة وبديعة، أن مهرة برية، عجز الفرسان عن فهم فطرتها وطباعها، لم يستطع مخلوق ترويض جموحي، ولم يعرفوا قيمة معدني ورفعتي ونسبي، أستطيع أن أذكر لك نسبي لعشرات الأجداد، سلالة نقية وشريفة من أول اسم في شجرتها.

كنت تائهًا وأنا أسمعها، ربما كان هذا نتيجة الإحباط فقد خاب ظني منذ فتحت لي تلك الخادمة السمراء الباب، الآن أنا جالس أمام الملكة التي ترتدي فستانًا أزرق اللون عاري الصدر والكتفين والذراعين، يرفع نهديها المكتنزين لأعلى بقوة، بدا كأنه يريد أن يلفظهما، وقصير بقدر كافٍ ليبين ركبتيها المدورتين، شعرها أسود كسماء ليل ممتدة لا تحاصرها البنايات، ممتلئة الجسم بدرجة تجعلها المرأة الأكثر إثارة في العالم، عندما رأيت هذه الصورة جن جنوني، قلت آه لو تدخل هذه البضة الملتاعة إلى خدرها ثم تناديني وأنا سأمثل دور المقاوم المتمنع، وأعطيها درسًا قويًا في المبادئ، وأني لست رخيصًا لكوني فقيرًا، لكني سأجعل الباب بيننا مواربًا كي تدخل منه، وسأتركها تستدرجني رويدًا رويدًا وأنا سأتبع خطوات الشيطان منومًا مغناطيسيًا وأقول في سري "عندي عذري فأنا شاب مسكين لا يستطيع الزواج، وقد بلغ من العمر ثلاثين عامًا" لكن الخادمة السمراء الخليجية اللهجة تحوم حولنا حوم الثعلب بالفراخ، تبتسم لي بعطف ومودة، وترحب بي كلما تلاقت عيوننا، تفيقني من أوهامي، كل شيء يقول إنه لن يحدث شيء اليوم.

-لم أعرف اسمك يا سيدتي حتى الآن؟

-ولماذا تريد أن تعرفه؟

-شيء طبيعي فأنا أعرف أسماء كل من أتحدث إليهم.

-لا، لا ليس مهمًا الاسم مطلقًا، هو مهم فقط في المعاملات الرسمية، وفيما عدا ذلك فليسمي كل إنسان نفسه الاسم الذي يليق به أو يحبه ولهذا فأنا اسمي نفسي الملكة، الملكة فقط، احذر أن تحاول معرفته لأنها ستكون غلطتك الكبرى كغلطة أبونا آدم عندما قرب الشجرة وقضم الثمرة.

جميل فما دامت تريد مواراة اسمها فهذا يؤكد أنها ستفعل معي الخطيئة، خطيئة اللذة المحرمة، ولا تريد أن تترك وراءها أثرًا للمتربصين والوشاة.

-من تلك السيدة السمراء التي فتحت لنا؟

-إنها مربيتي وتساعدني في ترتيب حياتي، لا أتحرك دونها، هي سيدة طيبة وتحفظ أسراري لا تخشى منها.

آه ماذا قد أخشى هاه؟ الكلام واضح يا غلام، يبدو أننا سوف نفعل شيئًا ما يُخشى منه.

-ألا تخجلين منها؟

-مم أخجل؟

- تحضرين رجلًا في شقتك واا...

هنا تغيرت ملامحها وتحوّلت صورتها، أصبح وجهها جامدًا كالصخر

وعينيها جاحظتين كالحرباء، وشفتيها مسحوبتين مع ميل للأعلى كالأفعى، ثم تحدثت بلهجة خليجية غليظة الحروف، وتخلت تمامًا عن لينها ومحاولتها مجاراة اللهجة المصرية.

-ما هذا التفكير المتخلف الهمجي، هل تراني أدير شقة للدعارة، ما بك يا رجل كنت أعتقد أنك متحضر وراقٍ.

هاهاها، خدعة قديمة هذه، دائمًا يقع فيها الرجال، حيث تقوم المرأة بجميع التصرفات الخليعة التي لا تقبل التأويل وعندما يحاول تخطي مرحلة التلميح لمرحلة التصريح والتنفيذ تفاجئه السيدة بهذه الكلمات "كنت أعتقد أنك محترم وراقٍ، كلكم مثل بعضكم، كل الرجال هكذا لا تفكير لهم سوى في الجنس"، فقلت في سري: أما وقد تحطمت أحلامي فلا مشكلة أن أجرحها بفسيفساء هشيمي، أو على الأقل أخرس صوت الأنا القادم من ذؤابة غرورها، فلنتكلم قليلًا عن المبادئ وفلسفة الفسيفساء وسحقًا لك ولرفعتك ونسبك.

-حديثك سيدتي عن الفسيفساء، ذكرني بفلسفة المبادئ، فالمبادئ أيضًا كالفسيفساء،

"سأشرح لك يا عماد وافتح عقلك ولا تعاند منطقي بغباء فقد أحببت ذكاءك".

هكذا افتتح المهندس "عارف" حديثه الفلسفي عن المبادئ، اعتدل

في جلسته وأمسك قلمًا ذهبيًا براقًا بين أصابع يديه بصورة أفقية واستأنف الحديث بعد صمتة قصيرة.

"قد يكون الإنسان مثلًا رافضًا للمال الحرام، يرفض الرشوة مثلًا أو سرقة مال ليس له، أو أخذ أي مال بغير وجه حق، فيدّعي واهمًا أنه الإنسان الأشرف، لكنه في الحقيقة ليس شريفًا جدًا، فالأمر ببساطة أن الله سبحانه وتعالى خلق البشر على عدة أشكال من الضعف والقوة، بعضها مثلًا ضعيف بطبيعته اتجاه المال وليس ضعيفًا اتجاه الجنس، وهناك أناس يضعفون اتجاه الجنس ولا يضعفون اتجاه المال، فإن أردت إغواء رجلًا تريد رشوته ولكنه يرفض المال الحرام فجرب معه الرشوة الجنسية، وليس بغباء طبعًا إنما تسلط عليه موظفة خبيرة تلعب بعقله وقلبه حتى تذيبه، في خلال أسبوع واحد يقوم بالعمل المطلوب كله مقابل ساعة واحدة، المهم أنه لم يُدخل بيته قرشًا "حرام"، وعمم القاعدة لتشمل كل شيء، فهناك إنسان مثلًا لا يخون صاحبه لكنه قد يخون الوطن، وهناك إنسان شريف لكنه غضوب وحقود، وهناك إنسان كريم لكنه انتهازي حقير وهكذا".

فهمت منه القاعدة جيدًا وأستطيع توظيفها الآن بشكل محترف فسأشرحها الآن لها بطريقتي الخاصة.

-أتعلمين يا سيدتي أن عندنا مشكلة عظيمة نحن أبناء الشرق، العرب.. المسلمين والمسيحيين، لدينا تناقض بين مبادئنا عجيب، كأن نقدم

العيب مثلًا على أوامر ونواهي الدين الثابتة.

نظرت لي السيدة بشغف، فقد استشعرت أني فيلسوف ولبق.

-كيف؟ أرجوك فسر كلامك!

-مثلًا الكذب والغيبة من الكبائر مثلًا، وتجدين النساء يفعلنهما بالليل والنهار، وإذا طلبتِ من الواحدة منهن قُبلة أو حضنًا تقول لك "عيب"، ولم نسمع في الدين بكبيرة اسمها كبيرة القبلة.

غيرت المرأة من وضعية جلستها وبدا عليها أنها منتبهة ومتحفزة للوثب، غاضبة لكني لست متيقنًا من سبب الغضب بعد، استأنفت أشرح فلسفتي.

-أي لمسة لجسد الأنثى ما لم يحدث الجماع الكامل فهي ليست كبيرة.

نظرت لي مستاءة فسألتني بدهاء:

-أتدعي أنه إذا تعرى الذكر والأنثى وفعلا كل شيء ما عدا الإيلاج فلا يعد هذا زنى؟

-نعم بكل تأكيد، ربما يكون زنى بشكل افتراضي، مثل العين تزني والأذن تزني لكن لن يقام الحد على رجل نظر لامرأة أو لمسها أو اهتاج لسماع كلامها.

امتقع وجهها حتى أصبح متكبدًا وهبت واقفة كالإعصار، ارتج النهدان بعنف وشعرها المنسدل كخيوط الحرير وزعقت بصوت يلامس

الصراخ:

-أتريد أن تستدرجي يا كلب، أنا الملكة يا حيوان، هل تظنني كلبة من كلاب الشوارع رخيصة.

صفعتني بغل وسخط وأخذت تدفعني طردًا، تمنيت لو كنت ميتًا قبل أن أدخل من ذلك الباب، فوقفت ولا أعلم ماذا يجب عليّ أن أفعل، هل انتهى الأمر هكذا، يا لها من نهاية مأساوية.

-أخرج من بيتي يا حيوان ولا أريد أن أرى وجهك هنا مرة أخرى.

فزعتُ كالحمر المستنفرة، واللبؤة طبعًا كانت القسورة، أتخبط في الشقة لا أعرف أين الباب اللعين الذي فتح لي من ساعة واحدة، فوجدت السيدة السوداء تشير إلى الباب ووجها القبيح يشع سخطًا.

نزلت السلالم ولم أفكر في المصعد من شدة ارتباكي وخوفي نزلت جريًا ووثبًا على درجات سلالم لأربعة عشر طابقًا، تبعثرت كرامتي وشعرت بأن رأسي أصبح أكبر من رأس الخرتيت، وتطاولت أذناي كأذني الحمار، مشيت في الشارع لا أستطيع لملمة أعصابي، ماذا سأفعل الآن وميعادي مع أم سلمى الساعة التاسعة، كيف سأبدأ حياتي وماذا سأقول لها؟ مؤكد أن تلك السيدة التي تلقب نفسها بالملكة ستتسبب في طردي من المقهى!

***

اختبأت في شارع جانبي مظلم وأخذت أنتحب بشدة، جسدي ينتفض من الخوف والهلع والاضطراب، بكيت كثيرًا ووددت لو أسكن هذا المكان المظلم للأبد أو أموت.

أفرغت دموعي كاملةً، ثم جففتها والعرق من وجهي ورقبتي والقطرات السائلة التي تتسحب كالثعابين نحو صدري، وخرجت من الشارع المظلم ليس كما دخلت، كل شيء يبدو جيدًا إلا ما يحدث بصدري، شعرت بأن عيون الناس تطاردني، تعلم بما فعلتُ توًا وما فُعِل بي، تقول هذا هو الحيوان الذي لا يفكر سوى في ذكره، الحيوان الذي راود السيدة الطاهرة المؤمنة، اللعنة عليك أيتها اللعوب العاهرة، تدعوني لشقتها وتجلس برداء يواري ثلث جسدها ثم تدّعي الطهر والشرف، آه عليّ.

يجب أن أصب شمعي الذائب في قالب البرود، وأن تكون عيني من زجاج، وملامحي جامدة صلبة، وألا أهرب من عيون الناس بل سأواجههم وأقول لهم نعم أنا ذلك العاهر الفاشل ولا أبالي، من كان منكم بلا عهر فليرميني بحجر.

يجب أن أحضر علبة الحلوى سريعًا لأدخل بها على أم سلمى، فالحلوى في هذا الموقف أهم من العريس، لن ينسوا طوال عمرهم أن المتعوس حضر يطلب يدها خالي اليدين، بلا فاكهة ولا حلوى، الوقت يداهمني، أريد إحضارها والرجوع لأبدل ثيابي وأغسل روحي المضطربة ببسمات

obeikan.com

سعاد، لكن كيف سيكون اللقاء وأنا محمل بهذه الخيبة والهزيمة؟!

-سعاد تعالي يا فتاتي.

نظرت فرحة بعلبة الحلوى المزينة بالورق الملون والشريط الأخضر المبروم من الطرفين.

-آه حبيبتي هذه العلبة ليست لنا إنها هدية لأم سلمى فأنا ذاهب لأخطب بنتها، ولن أستطيع فتحها، البيت موحش يا حبيبتي ويشتاق للفرحة.

انطفأت فرحتها قليلًا فقلت لنفسي كيف تفلت تلك الفرحة وهذه البسمة، يا لك من غبي تحتاج لجبر كسور روحك، وعلاج سقمك والدواء أمامك وتضيّعه.

-والله يا صغيرتي أنتِ أغلى عندي من سلمى وأمها وما حملت الدنيا من بشر ونعم، ستأكلين من الحلوى قبل الجميع.

فجلست وبدأت افتتاح الحفل، كان الأمر شاقًا، وسط ترقب سعاد وتلألأت عينيها من الفرحة، كيف ربط أولئك الأشقياء هذه الأشرطة.

-ها، أخيرًا الحمد لله، خذي يا حبيبتي خمس قطع ستحبينها جدًا لقد ذقت واحدة بالمحل إنها رائعة المذاق!

ولكن المعضلة الآن في إعادة الوضع كما كان، الوقت يمر سأتأخر، لا يهم سأربطها بأي طريقة وليكن ما يكون.

جلست السيدة متحفظة جدًا، تضع يديها على ركبتيها كتمثال فرعوني لهر أسود، ترتدي ملابس أنيقة من العصر الفائت، محتشمة إلى حد ما، بنطالًا أبيض اللون وقميصًا كحلي اللون طويل الكم مزين ببقع بيضاء مستديرة بحجم عملة فضية، تربط الحجاب بطريقة تقليدية، لا ترتدي الخمار مثل ابنتها، اختلفت ملامحها كثيرًا، حيث أصبح بياضها شاحبًا، وجهها رفيع مستطيل أنفها حاد مدبب يستطيل مع وجهها، ذقنها مشدود لأسفل ويسحب وجنتيها ليبدوا كتمعين، شفتاها رفيعتان مزوقتان بطلاء وردي رقيق، كانت بسمتها لحظة السلام مصطنعة روتينية، مثل التي تحدث كل يوم آلاف المرات في المكاتب بين الزملاء، بسمة لا تعني أبدًا أنها سعيدة بحضوري، على أي حال لم تدم أكثر من برهة، سلمى اختفت بعد أن فتحت الباب لي وأدخلتني، خمس دقائق ثم عادت بعدها تحمل صينية بلاستيكية بيضاء بها صور ورود حمراء طافية على صفحة ماء صافي، عليها ثلاث كؤوس عتيقي الطراز بهتت النقوش الذهبية التي تزينها.

-تفضل عصير برتقال سيعجبك.

جلسة السيدة وجمود ملامحها تقول إنها تخطط لشيء ما تعتقد أنه سيكون صوابًا وسيطرة لابد منها لتضمن لابنتها حياة أفضل من حياتها، وزوجًا منتوف الريش لا ينفش نفسه عليها أو يطير.

-سيدتي أنا أقبض من المصنع ألف ومئتي جنيه، وأعمل ليلًا في مقهى

بوسط البلد براتب سبعمئة جنيه غير الإكراميات، أسكن في شقة إيجار قديم أدفع لها خمسة جنيهات ليس إلا، قليل من النظافة وطبقة واحدة من الدهان ستحييها، لم أدخر شيئًا حتى هذه اللحظة، فأنا استلمت العمل الإضافي من عشرة أيام فقط، وهذا لأثبت لكما مدى جديتي، لست ممن يحبون اللعب ببنات الناس.

صامتة لا ترد عليّ ولا تظهر أي شكل من أشكل رد الفعل، لا فرحة ولا غضب ولا استياء ولا قبولًا ولا رفضًا.

-أستطيع الآن تدبير ثمن دبلة ونقوم بخطبة عائلية، أنا سآتي وسعاد أختي.. وعم إسماعيل جاري وزوجته الحاجة فوزية فهما بمثابة العائلة بالنسبة لنا.

نظرتُ لسلمى متعجبًا، ماذا يحدث هنا؟ أنا موقن بأن السيدة تعرف كل شيء مسبقًا عن ظروفي المادية، وأنها وافقت على قدومي رغبة في إنجاز هذا الأمر، يا لكن من نساء ماكرات!

-اسمع يا ولدي، لقد عشنا ظروفًا صعبة ومقدرة جدًا إنك شاب مكافح، لكن قل لي كيف يصحب الضرير عمياء، الفقير يعول الفقيرة.

آه اعتقد أني شاهدت لوحة منذ عدة سنوات لأعمى يقود عميانًا، يسقط الأول ليتساقط الباقون تباعًا خلفه، تجسد آية في الإنجيل تقول: ﴿وإن كان أعمى يقود عميانًا يسقط كلاهما في حفرة﴾ دعك من محاضرة

الفن القديم والحديث وحوار الحضارات، وتحدث إلى المرأة التي تبارزك بالمنطق وتناورك، ما رأيك لو انسحب من أمامك الآن ترى هل ستكونين سعيدة، أعرف مشكلتك، مطلقة تعذبت، تحمل عقد الدنيا وخبرات فاشلة ورؤية سوداء، ولا يدخل في نطاق قاموسها الثقة والأمان.

-أعمى يا سيدتي؟! سامحك الله، قولي لي ما المطلوب مني وأنا سأحاول جاهدًا أن أحقق رغباتك.

-أريد تأمين حياة ابنتي كي لا تعذبها كما عذبني زوجي!

-كيف أؤمن لها حياتها؟ اقترحي عليّ طريقة لو سمحتِ.

-اسمع يا ولدي لن أطلب منك أي شيء فوق طاقتك وقدراتك، موافقة بالدبلة، ونظف شقتك وادهنها، وادهن النجارة والأثاث وأنا سأجدد لك المراتب وأحضر لها أدوات المطبخ جميعها، لكن أريد منك ورقة بيضاء صغيرة لتكن وصل أمانة، امض عليها ولن نحدد فيها مبلغًا فإن غدرت ببنتي ذات يوم فلا تلومن إلا نفسك.

أغضبني كثيرًا ذلك الحديث، إنها سيدة لئيمة، وجميع المهزومين في الأرض لا يملكون إلا الدهاء، فقلت لها وقلبي يميل لهدم هذا الأمر:

- وماذا إن غدرتم أنتم؟

***

العمال بالمصنع كحبات الذرة في "ماكينة الفيشار" يفرقعون وينفشهم الغيظ والغضب، يقولون هرب عارف بيه، أمعقول هذا؟ مصنع بآلات وماكينات تزيد قيمتها على تسعين مليون جنيه يتركهم ويهرب؟ ولماذا يهرب؟

-يبدو أنه باع المصنع وهرب كي لا يسدد ما عليه من حقوق العمال، والله لن نترك المصنع إلا وخلعنا جدرانه وآلاته.

الأسطى جمعة ساخطًا يتحدث بلسان الوساوس، وعطية يسكب النفط على اللهب فيرد عليه

-أو نحرقه.

لكن إن كان لم يهرب فلم اختفى وأغلق جميع هواتفه، ما بال ظهرك يا عماد ينوء بالأحمال؟ هل كنت تظن أن الدنيا طيبة وتوزع الهدايا وتحقق الأمنيات في عيد الميلاد كـ"بابا نويل"، ينظر لي العمال بنظرات مختلفة، معظمها حبلى بالاتهامات، وبعضها بالريبة، جلست كما جلس اليائسون، ومسحت العرق كما مسح الرجال، والفتيات والنساء يمسحن الدموع.

-سنتشرد؟

-ليس معقولًا.

إنه وجه أم سلمى الشؤم تلك البومة قضت على ما تبقى لي من أمل

بنحسها، العمال صامتون كل منهم يحمل طائره فوق رأسه، من كمم الأفواه؟ من سكب على الوجوه تلال الشمع؟ جاء وليم عزيز أحد رجال السكرتارية القليلين مهرولًا يشيح بهاتفه المحمول ناحيتي:

-مهندس عماد .. مهندس عماد.

تناولت الطوق لعله النجاة.

-السلام عليكم.

-كيف حالك يا مهندس عماد أخرج للكورنيش أمام الفندق وسوف تمر زوجتي عليك تأخذك، أنا في الساحل الشمالي.

-لكن سعاد أختي بمفردها بالبيت.

-موجودة مع زوجتي بالسيارة لا تخف، ذهبت وأحضرتها.. هيا لا تتأخر.

سيارة مرسيدس سوداء فارهة طويلة جدًا، كالجنة إذا كانت سوداء، السائق وحيد في حاله بالأمام، وسيدة رائعة الجمال والبهاء متشحة بهالة من عطرها والضياء، تجلس وبجانبها سعاد التي اتسعت بسمتها حتى كادت تحتويني، تحمل باقة من ورود لم أر مثلها من قبل، وأنا جالس بالكنبة المواجهة لهما، أومأت السيدة ببسمة كالصبح، أنيقة رقيقة، عينان زرقاوان صافيتان ساحرتان، شعرها بني يموج بانسياب نازلًا على كتفيها ثم يتوارى خلف ظهرها، وجهها يميل للاستدارة،

obeikan.com

ملامحها تكتسب سحرًا أسطوريًا من غموضها والترف، ملابسها تميل إلى الحشمة، فستان أسود بثلثي كم، قصير إلى حد ما، يواري ركبتيها بالكاد، تحيط بعنقها سلسلة ذهبية رقيقة تتدلى منها ماسة بيضاء.

-كيف حالك يا مهندس عماد؟

-أنا ربما.. الحمد لله بخير.. هل حضرتك زوجة عارف بيه؟

-نعم.

-تصغرينه بثلاثين سنة أو يزيد.

-تقريبًا.. أنا أربعة وثلاثين عامًا.

سكتت بغير ضير، وأنا سكنت سكون القبور والملائكة بداخلها تعذب المذنبين، نظرت لي السيدة برهة والبسمة والإعجاب باديين عليها.

-ما لك حزين؟

قامت سعاد وجلست بجانبي فحضنت ذراعي وغطت في نوم الملائكة، كانت سعيدة لخروجها من البيت وخاصة ركوبها مثل هذه السيارة وفي صحبة السيدة الرائعة، ربما ركبت السيارة دون سؤال فما أجمل أن تخطفك مثل هذه السيدة من حياة مثل حياتنا، لا أعرف إن كنت أصف حالها أم حالي!

-لا شيء فقط المصنع يتهدم فوق رؤوس العمال وعارف بيه لا يبالي.

obeikan.com

سكنت كلماتها ولم يسكن البريق في عينيها وبسمتها القمرية، ضغطت على زر بالباب، فسمعت موسيقى لأغنية "يا مسافر وحدك" تخرج من سماعات مخبأة وبدأت السيدة الجميلة تغني بصوت هامس وتنقر بأناملها الرقيقة الرفيعة كأنها تنقر على أصابع البيانو، سكرتها الألحان وكذلك فعلت بي، تهز رأسها فيرقص شعرها الحريري المموج طربًا، وبدأ صوتها يعلو أكثر ليضفي على الموسيقى عذوبة لا مثيل لها، نظرت لي كأنها تخاطبني:

" ليه تبعد عني وتشغلني؟".

ترفع حاجبيها وترسل عيناها السؤال وتزيد بسمتها الحلوة.

"ودعني من غير ما تسلم وكفاية قلبي أنا مسلم".

"دي عينيه دموعها.. دموعها بتتكلم".

ترقرقت الدموع هنيهة، وتراخت قسمات وجهها وخيم عليها حزن مشبع بالحسرة على شيء ما، يا لروعتك في كل الأحوال يا سيدة السفر والترحال، هذا العارف بيه يملك كل شيء حتى الجمال المطلق بين يديه، ربما أضحى بسنوات من عمري مقابل قبلة على وجنتها اليمنى، تحت القرط الماسي بقليل.

"خليني دايمًا على بالك".

هل هذه السيدة تتعمد أن تخاطبني بكلمات الأغنية، لا، لا أعتقد، فهي

ليست كنساء المصنع المكدودات، فهي لا تتعامل سوى مع كل أنيق وجميل، مؤكد أني لست فتنتها الكبرى، ترى هل هي سعيدة معه؟

-صوتك رائع حقًا سيدتي، تخلل روحي كتخلل الضوء أوراق الشجر.

-شكرًا لجميل مدحك، أنا مغنية معروفة وأغني في الأوبرا كثيرًا.

-هل أستحق أن تغني لي؟

ابتسمت عيناها مرة أخرى وسلطت عليّ سهام سحرها الخيالي:

-أنا أغني لسعاد.

كم أنا غبي متوهم كي أخوض غمار هذا الموج المتلاطم، هي سيدة استثنائية، ربما ليست في المطلق، لكن على الأقل بالنسبة لي الآن، هناك نساء أو فتيات يحركن الحيوان المغلول داخلي بسلاسل الوقار، ونساء يوقظن الملاك الغافي في البر النائي من الضمير، هذه السيدة من النوع الثاني.

- ليس من الحكمة ما تفكر به.

ضحكت وعينيها سماءً الغنج والمكر والبراءة شموس تحلق فيها.

-عذرًا ماذا تقصدين سيدتي؟

-إن عارف ليس إنسانًا عاديًا، لن تصدق إن قلت لك إنه الآن يتصور بشكل قريب جدًا ما يدور بداخلك، وربما يعاقبك العقوبة الكبرى، بأن

يتلاعب بك حتى يصيبك الجنون.

هل نظراتي تفضحني لهذه الدرجة؟

***

سياج من شجر الفل يحيط الفيللا، كان الباب الحديدي الأسود قصير نسبيًا مواربًا، دفعه السائق الذي يحمل حقيبتي سفر كبيرتين، ثم دخلنا من الباب الداخلي للفيللا ومررنا خلال ردهة واسعة فيها أكثر من مجلس ذي كنبات وكراسي وسجادات فاخرة، ومزهريات، عبرنا خلال كل هذا الترف إلى بوابة أخرى مقابلة تطل على حمام السباحة، ثم منظر السماء والبحر الفيروزي الرائق.

استقبلني عارف بحفاوة وقام بعناقي، يبعد عني السيجارة كي لا تحرقني، يرتدي ملابس السباحة ذات ماركة أديداس العالمية، وصافح سعاد برفق وطيبة وقبل رأسها، ثم عانق زوجته عناقًا روتينيًا يخلو من المشاعر، ثم استأذنت نجوى وسحبت سعاد من يدها ودخلا معًا إلى غرفة منفصلة تطل على حمام السباحة، دعاني الرجل للاسترخاء على كرسي مريح مجاور لكرسيه.

أن ترتدي سعاد المايو الأزرق، أن تغرق في الضحكات السكر، أن تسبح بين ذراعي نجوى، المطربة الأوبرالية الأجمل، أن أجلس وأتمدد أمام حمام سباحة بمساحة تعادل ضعف مساحة شارعنا، أن أرى خمسة

ألوان لفواكه مختلفة، أن يقف الخادم المنزوي يشوي اللحم، أن يتمدد بجانبي ذلك البنك المتنقل، إنه النعيم المطلق، أقبل بكامل شعوري وإدراكي أن تكون هذه هي جنة المأوى بشرط أن تكون نجوى بجواري بدلًا من هذا الرجل.

-لن نتحدث في أي شيء قبل الغداء اتفقنا!

ألحان كلاسيكية خفيفة لبيتهوفن وموتسارت وغيرهما ممن لا أحفظ أسماءهم، حوار هادئ حنون يدور بين الجيتار والبيانو ويتسحب الكمان رويدًا رويدًا فينتشلني من الواقع ويرميني للسماء كريشة بيضاء، وهواء البحر برائحة الملح وطعم السكر، ونجوى بمايوه كحلي، يبين جسدًا مرمريًا يفتقر تمامًا لأي شحوم، تبدو كراقصة باليه، لا يوجد بها أي شيء يثير الشهوة، وهذا أفضل، فهي أرقى من أن أفكر في جسمها فقط، تجلس سعاد على الكرسي أمام نجوى، بكل لطف تجفف لها السيدة الحنونة الرحيمة شعرها ثم تدهنه بزيت ذي غلاف أنيق جذاب، ثم تمشّط على شعرها بمشط خشبي متسع المسافات بين أسنانه، تصنع لها تصفيفة تجعلها ملكة فاتنة، ثم ترتديان فستانين بنفس الشكل تمامًا، ونفس شكل الحلي والحذاء.

طوال ثلاث أو أربع ساعات لم تتلاق عينا نجوى بعيني زوجها، ولا مرة واحدة، لا يوجد بينهما ضغينة واضحة ولا تقزز مثلًا من أثر مشكلة ما، هما فقط وببساطة لا يران بعضهما، تعايشا منذ زمن بعيد على أنهما

خطان متوازيان لا يمكن تلاقيهما، امرأة مثلها مؤكد أنها تحتاج لرجل في حياتها يمنحها الحب والاهتمام.

-عارف بيه أرجوك أخبرني بنواياك وكفاك ضغطًا على مواضع ضعفي، أعرف أنك تدلك صلابتي بعنف تريدني لينًا طيعًا كي تعيد صياغتي وتشكيلي.

ابتسم الرجل بوجه يبدو طيبًا ولطيفًا ولم يرد عليّ بل أومأ أن استمر في الحديث فيما قام هو بإشعال سيجارة جديدة، ما هذا الرجل الذي يريد أن يجعل السجائر شريكًا أساسيًا في كل حوار بيننا.

-قل لي هل إن غدرت بالعمال من أجلك، هل ستثق فيّ بعد ذلك، إن خنت العمال اليوم هل ستتضمن ألا أخونك غدًا؟

-دعك من كل هذا الهراء أيها اللبق، أنت لا تفهمني ولا تعرف كيف أفكر، المسألة ليست مسألة بخل أو مال بوجه عام، أستطيع أن أوزع ملكية المصنع على العمال بنظام النقاط، للكبير والقديم منهم بنسبة في النقاط أكثر من الجديد والصغير، إن كان هذا يصلح حالهم حقًا، لكن لن ينصلح حالهم، بل العكس تمامًا هو ما سيحدث، سيفسدون وتتحول حياتهم لجحيم.

-كيف؟

-عندما يلوح المال في الأفق فإنه يستدعي شياطين المال، فيحركون

الطمع والجشع والحسد والتكاسل والتباغض، والرغبة المحمومة في الزيادة المطردة، حتى يقتل الناس بعضهم بعضًا.

-ولم لا تقول إنهم سيعيشون في سعادة ورفاهية؟

-هل سمعت عن الكاتب الروسي تولستوي؟

-نعم قرأت له روايتين "أنا كارنينا والحرب والسلام".

-هذا الرجل وزع أملاكه على الفلاحين، قل لي كيف حال الاتحاد السوفيتي الآن؟ أين هو؟ تفتت.. إنه بسبب أفكار أمثاله وماركس، التوازن يا ولدي لن يكون سوى بغني وفقير، مرفه وكادح، آمر ومأمور، أسياد وعبيد.

-سيادتك تلاعبني بما لديك من ثقافة وأعرف جيدًا أن رهانك الأول سيكون على تحويلي لدمية تحركها بالخيوط، كيف يقبل المنطق بكل ما تقوله، العمال المنهكون لا يكفيهم أجرهم، تسرقون عمرهم أيها الأثرياء، لا يملكون طريقة لتعليم أبنائهم بشكل جيد، تغذيتهم بشكل صحيح، علاجهم إن سقطوا فريسة للمرض.

-إنهم أغبياء ولا تصدق كل هذا الزيف الذي تحاول تصديقه، أين الكُتّاب الذي أخرج العلماء، هل العلم شهادة ورقية أم قيمة حقيقية تضاف للإنسان فيفكر بشكل أفضل ويبدع، أين الاعتماد على الطبيعة والأعشاب في العلاج، إنهم منهكون باللهاث خلف المدنيّة، ثلاجة

وتلفاز وخلاط وهواتف محمولة، أدخل بيت أي واحد فيهم وعد ما لديه من آلات وأجهزة.

لا أحد يستطيع هزيمة ذلك الرجل في الجدال، يبدو كمن يحفظ ما سيقول ويتوقع ما سأقول وردوده جاهزة كأنها معدة سلفًا لأسئلتي.

ذهبت إليه معبأ بهموم كثيرة، مخاوف العمال، أو أطماعهم كما يدّعي، مخاوفي وأوهامي، الآن وهو ينظر لي من بعيد مبتسمًا، ابتسامة ثقة ورهان أبدًا لم يخسره، والسيدة نجوى تقبل سعاد قبلة كبيرة وعناق يملؤه الحب والحنان، ثم أغلقت باب السيارة علينا وودعانا.

ضوء أصفر خافت ينفذ من زجاج يسافر في سواد الليل، نامت سعاد واستندت برأسها على فخذي، نجوى نثرت عليها عطرها الخاص كأنها تريد أن تستمر بروحها معي، تذكرتُ الزر بالباب فضغطتُ عليه، فبدأت ذات الأغنية مرة أخرى:

"مهما كان بعدك حيطول أنا قلبي عمره ما يتحول".

أسمع صوتها يتردد بلطف وانسيابية وتناغم كأنها في موضعها تغني.

"حافتكرك أكتر م الأول أكتر م الأول".

أقسم لك إني لن أنساكِ مطلقًا.

"بس أنت إياك تبقى فاكرني".

"يا مسافر وحدك وفايتني".

"ليه تبعد عني وتشغلني؟".

نامي هانئة يا حبيبتي واحتضني العروسة الكبيرة الجميلة الهدية، ذات الشعر الرملي الفاتح ودعيني أفكر في تهديد ذلك الرجل بغلق المصنع إلى الأبد، أو في المستقبل الذي ينتظرني بجانبه.

***

-"أرجوكم إخواني اسمعوني جيدًا إن هذا الرجل عنيد جدًا وأقسم أنه...."

رن الهاتف المحمول في جيبي، فتشتت وشعرت بأني ممثل هزيل يؤدي دورًا لم يحفظه بعد، تلعثمت.. تبعثرت حروفي، حاولت الهرب من نظراتهم في انشغالي بسحب الهاتف والنظر إلى شاشته، يقول لي إن الملكة تحدثني، لا لن أرد عليها، ربما كان يجب أن أرمي ذلك الهاتف اللعين في أول سلة قمامة قابلتني بعدما صفعتني وطردتني من بيتها، يا لها من عاهرة.

-الرجل عنيد جدًا خمس ساعات نتجادل ونتصايح في مكتبه.

أقف في مستوى أعلى منهم قليلًا، على الدرجة الثالثة من السلم الرخامي البني المؤدي لبوابة العنابر، وهم أمامي مئات ينصتون ينتظرون الغيث من غيمة لا تحمل قطرة واحدة تبل الريق، لا تحمل

لهم سوى الوهم.

الملكة مرة أخرى، سأغلق الهاتف في وجهك أيتها العاهرة.

-كدنا نتشاجر وكدت أبصق في وجهه لولا الخوف على حقوقكم وتشريدكم، أرجوكم أخواني عودوا إلى عملكم فالرجل يملك أكثر من مصنع، وأنتم لا تملكون شيئًا.

ماذا أقول لكم اللعنة عليّ.. لقد بدأت أسلم نفسي له.. دعوني أواري عنكم عطر نجوى العالق في شعيرات أنفي والشعاب الهوائية في رئتي، أواري صوتها الممزوج بالسفر، بالخروج من فلك المعاناة والحقيقة والواقع، أواري ضحكات سعاد الحلوة التي لم أسمعها منذ فترة كبيرة قبل وفاة أمي.

-المصنع لا يكسب والماكينات متهالكة، والجديد منها باهظ الثمن، المصريون يفضلون المنتجات الصينية فهي جيدة ورخيصة جدًا.

لم يطلب مني المهندس عارف بشكل مباشر أن أقول لهم ما قلته توًا، لكن تأثير سحره والجو الخيالي الذي ألقاني فيه كانا هما القوة الخفية الدافعة لي، ها أنا أقف متخبطًا، لم أحترف بعد أداء دور النذل ليس لأني قديس ولكن لأني لم تتح لي الفرصة من قبل، زادت الفوضى بين العمال والأحاديث الجانبية، بعض الأسطوات يضربون كفًا بكف، أما عطية فيبتسم ابتسامة صفراء ذات مغزى، عيناه تقول إنه يكشفني

ويعلم أني على مشارف الخيانة.

سلمى سعيدة بحبيبها المتحدث الرسمي باسم الشيطان، والمفاوض الوحيد باسم الأباليس، لم أعد أراها بنفس رداء الطفولة، بل أراها وأمها كسيدتين تقفان على أبواب محكمة الأسرة متحمستين لنتف ريشي وكسر أنفي، هذا لو حدث الزواج أساسًا.

مررت من أمامها غير عابئ بها، ولا بالسيدة الأربعينية التي راودتني من زمن ليس ببعيد، التي تنكسر أمامي كلما تقابلنا صدفة في مكان ما، ربما تشعر بالأسف لما تحدثت به عني خصيصًا بعدما قابلت افتراءها بالصمت والابتسام، خرجت من المصنع والعيون تراقبني، يلعب بعقولهم الشيطان، لحقت بي سلمى وأخذت تناديني، فكرت بقوة أن أنهي ذلك الأمر وألا أعود إليه بأي حال، قالت مبشرة والفرحة تملأ عينيها:

-أمي موافقة على أن نتزوج بغير إيصال الأمانة.

-حقًا!

تحدثتُ لها بلهجة متهكمة لكنها لم تلحظها فردت بنفس الحماس.

-نعم أقسم لك، لقد تشاجرت معها وقلت لها أنا أحب عماد ولن أتخلى عنه ولن أضع له العراقيل، ولو كان معي إيصال ضده لمزقته وألقيت به في النار.

طلبت منها أن تعود للمصنع حتى لا تلفت انتباه العمال، ثم مشيت مترنحًا أشعر بدوار رجل يرقص بالتنورة بين أمواج الضباب، مزاجي سيئ جدًا، أزفر بقوة محاولًا تخليص نفسي من همومها، كان وطء نظرات العمال على قلبي كالجبال أو أشد ثقلًا، تحسست الهاتف المحشور كفأر منكمش في جيبي، أخرجته وضغطت على زر التشغيل ضغطة مطولة، جاءتني رسائل من الشبكة تقول الملكة حاولت الاتصال بك ثلاثين مرة، ثم قفزت المحاولة الواحدة والثلاثين لتفزعني كادت تسقط الهاتف مني.

-ماذا تريدين مني؟

أحمل في قلبي أطنانًا من القسوة ورغبة جامحة في إذلالها وعقابها، لن يمر الأمر ببساطة أقسم بالله.

-عماد أريدك حالًا أرجوك.

-بهذه البساطة!

-أنا آسفة وموافقة على أي شيء تريد أن تفعله لكن احضر الآن أرجوك.

عندما ستفتح لي الخادمة سأزيحها عن وجهي غاضبًا وأرى الملكة المغرورة تفتح لي ذراعيها، حينها سأقول لها: "يجب وقبل أن نفتح صفحة جديدة أن نغلق الفائتة وأن أفعل شيئًا مهمًا جدًا"، ستنظر لي غير مستوعبة وغير متوقعة لما سأفعل، سأصفعها بقوة ألف غاضب

ذبحته الإهانة، سأزلزل وجهها وجسمها البض الأسمر، سأهد جبل غرورها فوق رأسها، وسأقول لها أنت غبية وحقيرة جدًا.

الغضب يخرج من أنفي أنفاسًا ملتهبة ومن عيني نظرات كالرصاص، صوت الخطوات يعلو، لا تنسى يا رجل.. بمجرد أن تدخل زح السيدة السوداء من أمامك بقسوة وغباء.

فتحت الملكة بنفسها، في يدها علبة مكعبة أنيقة، ترتدي ثيابًا فضفاضة ليموني اللون، يكشف ذراعيها والظل الفاصل بين النهدين، بسمتها أجمل من تفتح وردة حمراء فريدة في درجات لونها، هل سأستطيع صفعها حقًا، مدت يديها بالعلبة الأنيقة وقالت:

-أرجوك سامحني وتقبل هديتي.

نظرت لها ولم أمد يدي لهديتها فاستمرت تستعطفني:

-النبي قبل الهدية لا تكن أسود القلب.

مدت يدها اليسرى ليدي فمسكتها وسحبتني للداخل وهي تبتسم في غنج.

-أنا وأنت بمفردنا والشيطان ثالثنا هاهاها.

ضحكتْ أو غردت كعصفورة في صباح بنكهة الربيع، أسرتني المرأة وسحبتني كشال رقيق دون أي مقاومة، أجلستني على الكرسي المذهب

كعرش لملك فرعوني وجلستُ على الوسادة الغافية على الأرض كهرة شيرازي، وضعت العلبة في حجرها وأخذت تفككها بأنامل متوجة بأظافر شفافة مثل الزجاج لامعة كالماس، أخرجت ساعة ذهبية وسحبت يدي اليسرى وألبستني ساعتها ووقتها وسحرها وجاذبيتها.

-ساعة رادو سويسرية تليق بك أيها السيد المهذب.

ما زالت الدهشة تغلق حنجرتي وتسرق أحبالي الصوتية.

-عماد لا تكن سخيفًا أرجوك، أنا لم أنم من البارحة بسبب تأنيب الضمير، كنت مضطربة ومشوشة، أرجوك سامحني.

أشحتُ بوجهي بعيدًا، كيف أستطيع تناسي صفعاتها؟

-آه لو تراني يا سيدي على حقيقتي وبعيدًا عما تقع عليه عيناك، لعرفت أني ملكة مهزومة يلعب على عرشها الذئاب، مهشمة أحاول لملمة شظاياي، أن أتماسك وأبدو صلبة في وجه الضغط العنيد، ربما أبدو مغرورة بعض الشيء، لكني في الحقيقة أواري الألم وعورات روحي وجروحي الغائرة حتى أعماق القلب، انس جسدي لا تنظر إليه، لا تعتقد أني أرتدي لك هذه الثياب لأغويك، لا تكن غبيًا، أنا فيلسوفة المساء وإشراقة الصباح، أنا اللبؤة المتوحشة والهرة التي تتمسح بكلمة حب صادقة، أنا إنسانة وقبل كل شيء لكن روحي ملكية، مملكتي ضائعة مني، أحتاج إليك لتجدها معي، ضيعها طليقي الذي كان غبيًا قاسيًا

كجيوش التتر إذ دهست الكتب ودمرت الحضارات، لم يقدّر قيمتي، أهانني وتزوج بخادمتي الفلبينية، إنه الذل يا عماد، عندما تُفرك كرامتك وكبريائك كفرك ورقة شجرة جافة ورميها في الطين.

كانت تتحدث وهي نائمة برأسها على ركبتي اليمنى، أصبحتُ كقطعة زبد تواجه قيظ شمسها، لكني هذه المرة أخشى أن أملّس على مفاتنها حتى بنظراتي، فهي مجنونة متوحشة، غادرة كالبحر، لهجتها الخليجية أشعلت النيران في جسدي، عفرتت حيوانات الشهوة المغلولة، وجنتاها أصبحتا بلون الخوخ، وانهمرت دموعها حتى سالت خيوط كحلها متشعبة على وجهها، تجمعت بعضها عند حافة الفم وتجمعت الأخرى كنهر واحد أسود على رقبتها، هذه السيدة تحتمي بالغرور من هزائم كرامتها، تريد العلو على جمرات الذل المستعرة التي تأكل قلبها.

-الرجال من حولي جميعهم يتطلعون لجسدي.. أقاربي، جيراني، حتى العمال الهنود والباكستانيون، يعلمون كيف أن سيدة مثلي تتلوى كثيرًا من آلام الوحدة والشعور المهين بالبرد في أشد أيام الصيف حرًا.

إنها تميل أكثر فتلتصق بصدرها بساقي.

-الجميع ينظر لجسدي حتى أنت يا عماد، أنا لست مجرد جسد، أنا الملكة، لدي السلطة والمال والجمال والكبرياء، لدي ذكاء ودهاء أنثى شرقية، وما أدراك بالأنثى الشرقية عندما تكون ذات ذكاء ودهاء!

ما أصعب أن أجلس في موضع كهذا ومثل هذه السيدة جالسة تحتي تلثم ساقي بذراعها ونهديها ووجهها وأخاف أن أشتهيها، ما أقسى النار المكتومة التي تحرق جسدي بلا رحمة، يا لها من شيطانة ستهلكني عاجلًا أم آجلًا.

-أرجوكِ كوني واضحة معي سيدتي، ماذا تريدين مني؟

-أريدك أن تسمعني، ليس بأذنك لا، بل بقلبك يا عماد، حس بي، كن طيبًا حنونًا، دعني أحكي لك عن طفولتي، عندما كنت أرتعب من الخدم عندما كنت أشعر بلمسات السائق غير البريئة والتي كان يحاول فعلها بطريقة تبدو عفوية لا يلحظها مخلوق، لم أعرف ماذا يجب عليّ أن أفعل، فقط صمت وحاولت أن أتحاشاه، دعني أحكي لك عن شبابي وجموحي وتهوري أنا وصديقاتي، كنت متمردة ولا زلت، أمي تخاف من لساني السليط وأبي يعطيني الأموال بغير حساب، أبي دائمًا في العمل، أو مسافر أو عند زوجته الثانية، زوجوني وأنا صغيرة من رجل قاسي القلب، مجنون سكير، عذبني كثيرًا وكنت أعذبه بطريقتي الخاصة، أسمح لأصحابه أن يتحسسوا مفاتني بنظراتهم الملتهبة، وكنت أعطيهم بلا حياء، كنت سخية.

-وأين هن صديقاتك، لماذا لا تحكين لهن عن أوجاعك؟

-دعك منهن ومن غيرهن، أنا امرأة وحيدة جدًا يا عماد وأعرف يقينًا

أنه لا يوجد إنسان ممن حولي مستعد لإيقاف حياته من أجلي ليوم أو يومين.

***

لملم توترك وتناقض كل شيء بداخلك ولا تنظر لسماء المدينة، لم تعد ملجأك، الدخان.. الدخان في كل مكان وفي عينيك وفي عقلك وفي قلبك، أنت يا دمية المدينة الباهتة الخانقة.

أسمع خطواتي تنقر الطريق، الشوارع تكاد تخلو من المارة، المحلات تغلق أبوابها في وجه الهدوء، كم تكره الواجهات الزجاجية ذلك السكون، مررت أمام واحدة ما زالت مشرعة، نظرت لانعكاس صورتي في عينها، كلي باهت بالٍ إلا ذلك الجزء الذهبي في ساعدي، تقول الملكة "تليق بك" لكنها لا تليق من وجهة نظري، ربما لو بعتها لاستطعت فعل أشياء كثيرة بثمنها أولها شراء الدبلة، لكن كيف يا ترى أبيعها، قد تكرهني الملكة الرائعة.

مررت أمام المقهى الذي أعمل فيه فوجدت صاحبه السيد سامح يقابلني بابتسامة واسعة وأقبل عليّ يعانقني!

-كيف حالك أيها المحظوظ، آه لو كنت جميلًا مثلك.

ضحك ضحكة رقيعة كان وقعها على نفسي مقززًا، ومسك ساعدي ونظر للساعة بعين حاقدة حاسدة:

-ياه ساعة رادو! هل تعلم أنها تساوي عدة آلاف من الجنيهات أيها المحظوظ.

فسألته وقد حانت لحظة المكاشفة:

-ماذا يجعل راتبي مستمرًا يا سيدي رغم تغيبي؟!

-لا تقلق يا رجل فالسيدة تدفع بسخاء.

كم أساوي كي تدفع السيدة للمقهى، وتشتري لي ساعة باهظة الثمن وتعطني خمسمئة جنيه قبل مغادرتي، ربما كل ما تدفعه لا ينقص من مالها مثقال ذرة، أنا رخيص على أي حال حتى لو أنفقت من أجلي مليون جنيه.. قالت لي وأنا خجل أن أمد يدي لمالها "أنت طبيبي النفسي وهذا أجر عادل".

أسير وحيدًا في طريق العودة للمنطقة المنسية من قاع المدينة، تلملم الأعمدة ظلي وتعيد إلقاءه في الطريق، كالصيادين إذ يرمون الشباك ويلملمونها، ولكن ماذا قد تجني الأعمدة الصفراء الإضاءة مني سوى بعض التسلية، قد أتوقف دقيقة وأواجهكم، أنظر في عيونك المشعة بالأضواء الكئيبة، وأستطيع أن أرمي وجوهكم الملتهبة بالحجارة وأطفئ شهوتكم القذرة بالتلاعب بظلال الناس.

دخلت البيت لأجد سعاد نائمة على الكنبة بالردهة، ترتدي بيجامة قطيفة وردية أنيقة لم أرها من قبل، تعجبت وأيقظتها بلطف:

-سعاد .. حبيبتي.. لقد أحضرت لك طعامًا.

قامت متكاسلة جميلة منعمة في ثيابها الجديدة.

-لقد أكلت

-أكلتِ؟ من أين أتيتِ بهذه البيجامة الجديدة والأكل؟

-نجوى.

نجوى.. آه يا قلبي، كيف أفكر فيكِ يا سلمى وأنا محاط من الجانبين بالشمس والقمر وأنتِ لا شيء سوى فتاة صغيرة معلقة في قوائم الشرفة الساكنة في مدن الذكريات.

أشارت لغرفتي وقالت:

-دخلت هناك.

هل رأت الثياب المتسخة المعلقة على كل شيء وعلى المسامير المثبتة في جدران الغرفة، هل شاهدت السجادة والملاءة وشمت روائح السجائر المنطفئة في بقايا الشاي، والعطن الأصيل لغرفة لا تلقي عليها الشمس نظرة، قامت السيدة النبيلة الجميلة بتنظيف غرفة سعاد وأهدتها لعبًا جميلة وثيابًا، ماذا تريد هذه السيدة؟ هل هي جزء من مخطط ذلك العارف بيه لتفتيتي من الداخل وإعادة برمجتي لأكون جاسوسًا يعمل لصالحه بين العمال؟ أم أنها تحبني وتجعل سعاد ذريعة

لتقتحم حياتي، السيدة محرومة من الحب والحنان ومؤكد أنها محرومة من أشياء أخرى، بينهما ثلاثون سنة، هو يمتطي جواد الأفول، قلبه متليف، عقله متيبس، وهي صعدت توًا خشبة المسرح لتؤدي دورها، آه يا قلبي ما هي قوة حصونك لتواجه هذه الرياح العاتية؟

***

عندما أخبرتني سلمى بموافقة أمها لم أفرح في الحقيقة، فلم تعد سلمى أجمل شيء في حياتي بل بالعكس انكشف ما كان مكنونًا وإن كنت أتوقعه، بدا لي ما قد أواجهه من مشكلات في المستقبل، لذلك فأنا لم أرد عليها وأجلت الحديث في هذا الأمر لوقت لاحق، وسأذهب اليوم أيضًا وسأؤجله ليوم آخر.

باب المصنع مفتوح المصراعين، العمال في حالة فوضى لا تشبه تلك التي كانت في الأيام المنصرمة، أول ما دخلت جاءني عبد الحميد الفراش مهرولًا يحثني على الإسراع:

-المهندس عارف مجتمع بكبار المهندسين والعمال في غرفة الاجتماعات.

يا لها من مفاجأة غير متوقعة بالمرة، لقد تخيلت أن الرجل سيظل في جنته الشمالية الساحلية ويتركنا هنا تشوينا الظنون!

غرفة واسعة تزيد مساحتها على العشرة مترات مربعة، تتوسطها

طاولة بنية كبيرة مستطيلة مستديرة الأركان، تشبه الحلقة حيث إنها فارغة من المنتصف، وحولها حوالي ثلاثين كرسيًا أو يزيد، مكسية بالجلد الأسود المنطفئ اللمعة، أشار لي المهندس عارف أن اقترب فتقدمت للجلوس بالكرسي المجاور له وكان الوحيد خاليًا، الجميع ساكتون واجمون إلا هو يدخن السيجار بهدوء كأنه يجلس وحيدًا ويقرأ كتابًا وهو مسترخٍ على شاطئ البحر، أمامه عدة ملفات وتقارير ورقية والحاسوب الأسود ذو التفاحة المقضومة.

-أنا لست إنسانًا جشعًا ولا قاسي القلب كما تظنون، وإن كان أي واحد منكم مكاني لفعل ما هو أكثر.

الرجل بدأ يمارس هوايته بالتلاعب بالعقول، فعنده منطق قوي متماسك، أفكاره مرتبة ومتدفقة، يبدو صادقًا في كل كلمة.

-لكي تفهموني يجب أن تشاركوني التفكير في الأمر من موقعي هذا، لا يفكر كل طرف على حدة، معي هنا الأوراق التي تثبت كل كلمة سأقولها لكم، سنحسب معًا جدوى استمرار المصنع واقترحوا عليّ ما أفعله بعد ذلك، أولًا قيمة المصنع والأرض والآلات والمخازن تساوي تسعين مليون جنيه، لو وضعتها في البنك ونمت في بيتي مرتاح البال لكسبت سنويًا تسعة ملايين جنيه دون وجع الرأس هذا، هل تعرفون كم هو صافي مكسب المصنع سنويًا؟ قل لهم يا ويليم.

دفع وليم عزيز بسبابته نظارته المستطيلة البلاستيكية السوداء الإطار لتعتلي موضعها فوق أنف معقوفة محدبة كسنام الجمل بحركة عصبية لا إرادية، ثم فتح الملف الأزرق الذي بين يديه مصطنعًا القراءة، وأنا أعلم جيدًا أنه يحفظ الأرقام عن ظهر قلب لكنه يريد إضفاء شيء من المصداقية بقراءته من المصدر نفسه.

-المصنع لا تتخطى أرباحه السنوية خمسة ملايين جنيه، والعام المنصرم لم يربح سوى مليوني جنيه فقط، والعام السابق له ربح ثلاث ملايين جنيه وثلثمئة ألف.

-قولوا لي بالله عليكم لو زودت المرتبات هل سأربح مليمًا بعد ذلك، قل لهم يا ويليم لو زودت المرتبات ما هي التكلفة السنوية؟

-لو زودنا المرتبات بتموسط ثلثمئة جنيه في عدد عمال المصنع السبعمئة، في اثنى عشر شهرًا ستزيد التكلفة السنوية لاثنين مليون وخمسمئة ألف جنيه تقريبًا.

- إذًا ما الجدوى الآن من المصنع، قل لي أنت يا أسطى حسنين، ماذا تفعل لو كنت مكاني؟

أطرق الأسطى حسنين رأسه أرضًا ولم ينبس بكلمة، لكن الأسطى عطية الذي يعلم جيدًا أن السكوت في هذه الحالة هو في واقع الأمر اعتراف ضمني بأن المهندس عارف على حق وهم مخطئون فتكلم

مندفعًا ثائرًا:

-لكن حياتنا لا تحتمل ونحن فقراء بدرجة لن نستطيع الصبر عليها.

ثم نظر لي الأسطى عطية بنظرة خبيثة ثم رمى لي طعمًا لكني أذكى وأدهى منه ذلك الجاهل.

-ما رأيك يا باشمهندس عماد أنت أدرى بحالنا؟

رمقني الجميع وانتظروا الإجابة التي ستبين حقيقة موقفي من قضيتهم فقلتُ:

-يتوجب عليك يا عارف بيه أن تفكر في حلول لزيادة أرباح المصنع، وبالتالي زيادة مرتبات وأجور العمال، فشل المصنع ليس مشكلتهم هم إنما هي مشكلة الإدارة.

رأيت الراحة ترتسم على الوجوه بعد كلمتي، ووجدت عارف بيه مهتمًا باقتراحي وطفق يناقش الفكرة:

-هل تحبون أن أربط أجركم بالربح؟ فإن أردتم راتبًا أعلى فلابد أن تعطوني إنتاجًا أكبر.

فتكلم الأسطى جمعة قائلًا:

-الآلات قديمة ولن تساعدنا على زيادة الإنتاج ولا بديل عن تبديلها بماكينات جديدة.

فسكت عارف قليلًا ثم أخرج ملفًا آخر به صور لماكينات حديثة متطورة.

-جميل.. أنظروا لهذه الآلات، أنا موافق أن أشتريها مهما كانت تكلفتها، لكن هناك مشكلة كبيرة إن أحضرتها، إنها ستوفر ثلث عدد العمال، إن كنتم تحبون أن أرسل في طلبها فلا بد أن تتوقعوا تسريح ثلث العمال، أو مئتي عامل على الأقل.

تمكن الرجل المذهل من ردم نيران غضبهم بتراب منطقه، وألقى في قلوبهم الحيرة والطمع والصراع، إنه قدير وخبير في هذه اللعبة، فقد نفذها معي بنجاح منقطع النظير، ولم يكتف بهذا، بل ألقى بين أيديهم الجمرة الكبرى حيث قال لهم:

-فكروا في الأمر وأعدكم أني لن أتخلى عنكم وسأسرح أغلب العدد من العمال الحديثين بالمصنع.

خرج الرجال يتخبطون في الطرقات المؤدية للساحة السفلية أمام العنابر، صارمين على أن يسروا بوعد مهندس عارف، أعطاهم فرصة للتشاور، فرصة ليقرروا ذبح زملاء العمل في مقابل فرصة أفضل لأنفسهم، سيتضاعف راتبهم بعد أقل من سنة.

***

إن وافقوا على الفكرة واختاروا التميز في الأجر على حساب باقي

زملائهم في المصنع فهذا سيؤكد نظرية عارف عن جشع العمال، سألت نفسي هل العمال الذين تفحم كبدهم كمدًا لشعورهم بالظلم سيقبلون أن يخدعوا أصحابهم ويقودوهم لهوة الظلام، أعتقد أنهم لو فعلوا ذلك فسنكون جميعنا أنذالًا، وإن رفضوا فسأكون النذل الوحيد.

في اليوم التالي ذهبت إلى المصنع فوجدت كل عامل على الماكينة الخاصة به، نعم لقد عاد كل شيء لوضعه الطبيعي، أرسل لي المهندس عارف فصعدت إليه.

-الآن تبدو المشاكل في طريقها للحل ودون وساطتك، هل ما زلت معتقدًا أني استخدمك لتحقيق أغراض خبيثة في نفسي؟

لم أعد أعرف بماذا أجيبه، فأنا أشعر بأني طفل يجلس في حضرة المعلم الأكبر.

-إن وافق العمال على شراء الماكينات الحديثة فسوف أرسلك للخارج لتتعلم كيف تدير العمل وفق المعايير العالمية، فأنت ستكون ساعدي الأيمن.

شيء رائع سأسافر إلى الخارج، سيتضاعف راتبي، سيثبت لي الحظ أنه لا يوجد بيننا أي مشكلة وأن نظرية المؤامرة هي دومًا المسيطرة على عقل التعيسين فقط، ربما أجلس مع الملكة يومًا وأنا ند لها ولست مجرد رجل ينصت لها نظير مبلغ مالي، مواطن في مملكتها تمارس

عليه شؤون حكمها، لن أنسى غباءها وصفعها وسبها لي أبدًا وسوف يأتي اليوم الذي أرد لها الصفعة صفعتين، لكن لماذا لم تتصل بي ليلة البارحة، هل أصابها مكروه؟ هل سافرت لأمر طارئ؟ توقعت أن يكون لقاؤنا يوميًا، مر الأمس كئيبًا كنت أنظر لشاشة الهاتف كل بضع دقائق، وأقول لعلها اتصلت ولم أسمع الرنين، ربما الشبكة سيئة اليوم، أعدت تشغيل الهاتف عدة مرات، حاولت الاتصال بها لكن هاتفها يعطيني دومًا "مشغول"، ولم يخرجني من هذا الألم العجيب سوى صراخ سعاد:

كنت واقفًا في نافذة غرفتي أشرب السيجارة وكوب الشاي، البنت المسكينة صرخت صرخة عظيمة أو عدة صرخات ثم سكتت تمامًا، قفزت من مكاني وعدوت صوب الباب كالمجنون خوفًا عليها، وجدتها أغمي عليها في غرفتها تبلل الدماء بنطال بيجامتها الجديدة، حاولت إفاقتها ثم سمعت طرق الباب ونداء الحاجة فوزية فجريت لعلها تستطيع نجدتي، حملناها معًا ووضعناها على الفراش، ثم طلبت مني السيدة أن أحضر لها عطرًا نفاذًا، وقالت لي اطمئن، لكن أرجوك انزل لساعة أو ساعتين وأنا سأقوم بكل شيء، تركتها وقلبي مليء بالمخاوف، لكن مؤكد أن الأمر سيمر بخير طالما هي مع الحاجة فوزية، فهي اعتادت عليها خاصة أنها تقوم بتحميتها مرة كل أسبوع على الأقل، نزلت إلى المقهى الموجود بالشارع العمومي، أراقب الوجوه، المدينة الشائخة تلقي ملامحها عليها، نظرت إلى السيارات التي لا تتوقف عن تعذيبي

بأبواقها وعادمها وتكدسها الدائم، أريد أن أقول لها لماذا تفعلين بي كل هذا، جاءني القهوجي يسألني عن المشروب الذي أريده فطلبت منه قهوة سادة، ولم أدرك حجم خطأي إلا بعد الرشفة الأولى، أنا لست من هواة القهوة عامة فما بالك بقهوة سادة!

-اطمئن يا ولدي، خير لا يوجد شيء، فقط البنت أصبحت آنسة، وهذه دورتها الشهرية الأولى.

أصابني ذهول وكأني نسيت أن سعاد أنثى وكل أنثى يأتي لها اليوم الذي تحيض فيه.

-اطمئن يا ولدي، سآتي إليها كلما سنحت الفرصة حتى تمر أيام الدورة بسلام.

المسكينة على حالها مذعورة من مشهد الدماء، فدخلت إليها وهي ما زالت في عيني الطفلة الرضيعة ولم تزد في نظري اليوم سوى بضع قطرات دماء، جلست بجوارها وسحبت رأسها إلى صدري.

-تعالي يا حبيبتي سأحكي لك حكاية كما كنت أحكي لك من عدة سنوات.

ابتسمت لي الجميلة وشعرها منسدل على كتفها وكتفي ويداعب وجهي.

-قولي بسم الله الرحمن الرحيم.

-بسم الله الرحمن الرحيم.

-بسم الله ولا يحلو الكلام إلا بالصلاة على نبينا خير الأنام، كان هناك فتاة طيبة وجميلة، تعيش في بيت قديم على أطراف قرية صغيرة، كانت أمها تحذرها دومًا من الناس، تقول إن الناس هم مصدر الشر والتعاسة، وذات يوم استيقظت الفتاة الجميلة ولم تستيقظ أمها، للأسف ماتت.

-راحت عند ربنا؟

-نعم يا حبيبتي، تشرب من أنهار العسل واللبن وتأكل اللحوم والفاكهة، مرت الأيام بعد ذلك والبنت تنتظر أن تأتيها أمها من عند الله لتصنع لها الطعام، كانت جائعة وخائفة، وترفض أن تفتح الباب للجيران، تتضور جوعًا، تبكي من الوحدة والظلام، كانت هذه غلطة أمها التي جعلتها تعيش خائفة من الناس جميعًا، فأغمضت عينيها لعلها تجد في النوم راحة لها، غفت برهة قصيرة ثم استيقظت على صوت امرأة يشبه الموسيقى، كانت سيدة ممتلئة قليلًا مثل جسمك هكذا، بيضاء ذات عينين بنيتين تشبه عينيكِ، أنفها قصير، أرنبته مدورة مثل أنفك، تشبهك في كل شيء تقريبًا، ترتدي فستانًا أبيض اللون طويل وذا كمين طويلين، لم تخف منها الفتاة، بل بالعكس رأت فيها صورة أمها التي رحلت، فمسكت السيدة الجميلة يدها وقبلتها ثم حملتها وأخرجت عصًا سحرية شقت بها الظلام فانفتح باب من نور، خرجت الاثنتان

منه، ودخلا من خلاله لمدينة الأحلام الجميلة، فتيات صغيرات كالملائكة تلعب وتضحك، وأشجار تثمر جميع الفواكه، وحيوانات تتحدث بأصوات لطيفة تدغدغ الآذان، وأرجوحات ملونة في كل مكان، وقالت لها السيدة الجميلة ما رأيك يا حبيبتي، سنعيش هنا معًا وللأبد، فرحت الفتاة فرحة عظيمة واستسلمت لصديقاتها الصغيرات فذهبت لتأكل معهن الشطائر وتلعب معهن.

***

"كان هناك في سالف الأزمان، أمير جميل اسمه عماد، كان يحسده جميع الأمراء على جماله وذكائه وقوته، وكان الملك الأعظم لديه أميرة هي الأجمل على الإطلاق، وقرر أنه قد حان الأوان لتزويجها، وليتقدم كل أمير يرى نفسه جديرًا بها، وسيعطي لكل واحد فرصة ساعة ليقنعها بنفسه، ولها في النهاية الحكم والقرار.

حضر الأمراء تباعًا، وتحدث كل واحد منهم عما يملك، هذا يملك مالًا أكثر وهذا يحكم بلدًا أكبر وهذا أذكى وهذا أبهى، وهذا، وهذا، حتى وصل الأمير عماد.

لم يحضر لها سوى وردة هي أجمل ما نبت في الجبال البعيدة، وجلس بين يديها وقال، يا أميرتي الجميلة لن أستطيع إغراءك بالمال ولا بالسلطة، فأنا سأهدي المال وأتنازل عن السلطة لكل المنافسين فقط

لأربحك، فأنت لا تحتاجين لشيء سوى الحب، سنعيش في قصر صغير بين الجبال الثلجية الشاهقة والبحيرة، سنعيش حياة هي الأجمل على الإطلاق، فرحت الأميرة وقبلت وردته وخرجت راكبة عربته التي تجرها عشرة خيول صهباء.

هذا الصوت الذي يحكي الحكاية هو صوت أمي، كانت تحكي لي دومًا عن أمير اسمه عماد مثل اسمي، كنت أمير إمارتك الخيالية يا أمي رحمك الله، لقد كبرت أميرتك الجميلة سعاد وأصبحت آنسة، استيقظت من نومي على تقلب حبيبتي الصغيرة فقمت بتغطيتها وأغلقت النور وذهبت استعد للخروج للعمل.

ترى كيف سيكون اليوم في هذا المسلسل المثير الحلقات، لمخرج ومؤلف هو الأمهر، عارف بيه، لا أعرف يقينًا نوايا الرجل، فهو يبدو بسيطًا في منطقه واضحًا في نواياه، لكني لا أصدق كل هذا.

-يبدو أنك يا سيدي واثق من قبول العمال، ولكن كيف تسرح العمال هذا سيعتبر فصلًا تعسفيًا؟

دائمًا أتذاكى أمامه ودائمًا يثبت لي أني أحمق.

-لا مشكلة فقط سأتفق مع الجميع على قبول الفكرة وسأجعل الجميع يمضي على الموافقة أنه يقبل بالفصل إذا كان نصيبه من الثلاثين بالمئة الذين يخرجون في القرعة، وأن مسألة التسريح ستتم بصورة

غير انتقائية، سيقبل الجميع إن وثقوا بنزاهة التجربة وأن الجميع سيكون متساوين، وسيمضي الكبير قبل الصغير، الكبار واثقون أنهم بأمان وفقًا لاتفاقنا.

-وهل ستكون القرعة نزيهة فعلًا؟

-لا تتعجل الأمور يا أيها المتحاذق.

وجدت بعض الأسطوات يتحدثون إلى العمال ويحاولون إقناعهم وفي مقدمتهم الأسطى عطية، يتحدث في كل مكان ويقنع العمال بكلام عارف بيه، ثلثا العمال سيعيشون حياة رائعة والثلث الأخير لابد أن يضحي، وقد يرزقهم الله بعمل أفضل، تحديد العمال المتبقين والمفصولين سيتم حسب قرعة وكل واحد يرضى بنصيبه، كان العمال متشككين في بادئ الأمر ثم بدا لهم الأمر لا مناص منه، نجح المهندس عارف في تحويل الأسطوات لمناصرين له وأفواه تلعب بالعقول كما فعل بعقلهم، أعتقد أنه حولنا جميعًا إلى شياطين صغار، سنصبح يومًا ما شياطين كبار نحترف اللعب بالعقول، نحول الناس لأدوات تحقق أهدافنا، ليسوا إلا أدوات، ثم يصبحون شياطين صغارًا فكبارًا يلعبون بالعقول، ويسير قطار مدينتنا من ظلام خفيف لظلام حالك، سنصبح وطاويط والمدينة كهف كبير.

سلمى أطفأها الحزن، حزن بسبب الحبيب الذي تغير فجأة ربما تعتقد

أن أمها هي السبب، وأني كرهت أسلوبها ولقاءها، لكن في الحقيقة كنت لأتقبل كل شيء لو لم تظهر نجوى والملكة في الوقت نفسه، تطاردني بعينيها في كل مكان، تؤنبني على قسوتي، تبعث لي بأسئلة كثيرة، ولم تحتمل المقاومة والانتظار.

-عماد أريد أن أتحدث معك.

-سلمى أرجوكِ لا تحدثيني مرة أخرى أمام العمال نظراتهم لا ترحم وأنتِ بنت لابد أن تحافظي على سمعتك.

-هل نسيت حبنا بهذه السرعة؟

هل أحبها حقًا؟ أم أنها جاءت كقطرة ماء والقلب صحراء قاحلة، الآن والقلب مغمور بسيول نجوى والملكة كيف يبحث عن قطرة الماء؟

-لم أنس شيئًا فقط أختي مريضة وأنا شاعر بالضيق من أجلها.

-أوعدك أن أخفف عنك.

أنها تلمح لي بلحظات الحب الملتهبة، متعة منخفضة التكاليف، لكني لم أعد أشتهيها، لقد تضاءلت رغبتي فيها، أتمنى لو أرى نجوى أو أسمع غناءها، أو أن أجلس على الكرسي الفرعوني ببيت الملكة وهي تجلس بجانبي بجسدها المستعر، وعطرها المسيطر الآسر.

-حاضر.. سأنتظرك في الكورنيش في مكاننا المفضل.

***

كنت منهكًا دائخًا تصاعدت وتيرة الشهوة حتى لم أجد لصعودها نهاية، مرت ساعتان، وأنا أستخدم سلمى بانتهازية منقطعة النظير، حيوان يفترس طعامه دون احترام يليق به، افتراس لسد الجوع وليس من أجل المتعة، كانت مستسلمة جدًا، متألمة جدًا ولا تقوى على منعي.

-عماد أنت تؤلمني.

حتى التقبيل كان عنيفًا، مسكات يدي قرصًا عنيفًا، هل أنتقم من أمها، أم كنت انتقم لغياب الملكة المفاجئ، أم أتعمد إهانتها لتكرهني؟!

-متى ستأتي؟

-إن شاء الله قريبًا لا تقلقي يا حبيبتي.

انتهى اللقاء كانت منهكة وتشعر بالإهانة، صدقت وعدي لها فهي لا تملك غير أن تصدق، أما أنا فأصبح شعوري بالاحتقار الذاتي أكثر عمقًا وإيلامًا.

أدرت المفتاح في الباب، لم أتوقف كثيرًا عند العطر المنتشر، كان الألم أقوى من أي حاسة لدي، دخلت وكانت نجوى والحاجة فوزية يجلسان مع سعاد، كالعادة أحضرت لها لعبًا، ثيابًا جديدة، أعددتُ لهما شايًا، طلبت نجوى أن تشربه بالشرفة، اعتقدت أنها تهيئ لنا المجال لنتجاذب أطراف الحديث.

-ملعقة سكر واحدة، واغسل الكوب جيدًا يا مهمل.

إنها السيدة الألطف في العالم أقسم بالله.

-هل عارف بيه يعلم بقدومك؟

-عارف لا يسألني أين أذهب.. وأنا لا أتبرع بتقديم التقارير.

-هل تكرهان بعضكما إلى هذا الحد؟

-الأمر معقد بدرجة لا يمكن شرحها.

-لا أتصور أن تعيش سيدة مثلك حياة مملة بلا حب ولا دفء.

نظرت في وجهي متعجبة من كلامي وابتسمت ابتسامة لم أفهمها، هذه السيدة غامضة بعض الشيء، ربما لو تتكلم أو تبوح.

-لا تستدرجني يا أيها المتذاكي.

شربتْ الشاي باستمتاع كبير، كانت تجول بعينيها على شرفات ونوافذ البيوت المحيطة، وكان الجيران المتطفلون يراقبونها بأعينهم يقتلهم الفضول، لم يكن يضايقها هذا الأمر، بل بالعكس كانت إذا تقابلت عيناها بعيونهم تومئ برأسها وتغمغم بالتحية، حتى لو كانوا شبابًا من معتادي المغازلات الرخيصة.

-عماد سأطلب منك شيئًا عظيمًا، وسأعتبرها خدمة أكون ممنونة لك بعدها العمر كله، لكني سأحتاج وقتًا حتى أحسم أمري، فالأمر ليس هينًا.

ارتجف قلبي لسماع حديثها، ماذا ستطلب هذه المرأة الغامضة؟ وماذا أملك لها غير قلبي لو شاءت؟

-لن أخذلك لكن ما هو هذا الشيء؟

-لن أستطيع الإفصاح عنه الآن لكنه قرار مصيري بالنسبة لي ولك أيضًا.

-سأصبر لكن بشرط واحد.

-ما هو يا متعب؟

-أن تقولي لي ما هي مشكلتك مع رجل مثل المهندس عارف.. إنه رجل عبقري ناجح ثري وسيم مهيب؟

-لا مشكلة سوى أننا تلاقينا في لحظة إبهار، والآن ذهب هذا الإبهار لكننا قررنا الاستمرار في الزواج طالما أن كلانا لا يسبب أي ضيق للآخر.

لا أعرف ماذا أريد منها، وما الحكمة من التمادي في الأوهام، أشعر بنهرٍ من نورٍ ينبع من عينيها ويصب في قلبي، لكن ليس لدي أي تصور واقعي لعلاقة تجمعنا، فلا أحد يستطيع أن يسكن القمر، فقط يحتضنه في الخيال.

اقتحمت سعاد علينا الشرفة وقالت لي وهي تضحك:

obeikan.com

-لقد جاءتني السيدة الحلوة وأنا نائمة.

نظرت لي نجوى مستفهمة؟!

-لقد حكيت لها بالأمس حكاية قبل النوم.

فابتسمت لحديثي.

-أنت شخص رائع يا عماد.

خرجتْ من الباب بخطى وئيدة، كأنها لا تريد الرحيل، كنت واقفًا عند الباب لأودعها، كان لدي شعور عميق يقول لي إن الأمر لم ينته بعد، وقفت السيدة الجميلة مكانها ثم استدارت ونظرت لي نظرة لم أفهم مغزاها.

-احذر يا عماد ولا تثق كثيرًا في عارف، فهو لا يعرف إلا شيئًا واحدًا.. واحدًا فقط، هو كيف يأخذ، لا يعرف أي شيء عن العطاء، إنه مخادع.. موهم.

***

كيف حالك الآن يا صغير، احكِ لي عن فأر يسقط من السماء وسط طريق سريع للسيارات، مئات السيارات تسير بسرعة جنونية، كيف أفكر، من أين أبدأ وإلى أين أسير، عارف بيه يقول لي لم أعد في حاجة إلى وساطتك، ورغم هذا أريدك مساعدي وابنًا لي، نعم صحيح يبدو

صادقًا، لكن نجوى تبدو لي صادقة أيضًا، بل هي الإنسانة الأصدق في هذا العالم المليء بالزيف، لماذا حذرتني؟ وماذا ستطلب مني؟ ماذا أملك لأعطيه لها؟ لم تنتهِ معاناتي وعذاباتي عند هذا الحد ولا بانتهاء الليل.

في النهار القائظ الخانق بالرطوبة وعرق العمال، كنت محمومًا بالأفكار، الصراعات، وخوف رهيب من مواجهة عارف بيه، كأني واثق أني موشك على خيانته، وهو سيرى بوضوح أثر الخيانة في عيني، إنه خطير، يمتلك قدرات شيطانية، ترى ماذا قد يحدث إن عرف أن زوجته تأتيني البيت، مؤكد ستكون نهايتي مؤلمة، وجميع الأحلام الرائعة التي رسمتها في خيالي ستنهدم فوق رأسي؟

أرسل لي وليم عزيز يطلب مني استخراج جواز سفر، وأن أكون متأهبًا للسفر في أي وقت، الرجل يثبت جديته وصدقه، ماذا أنتظر من سيدة تكره زوجها؟ ربما وجد الكهل فيّ ضالته، رجل كبير يعيش بلا حب، بلا دفء، بلا ولد، رجل كبير حقًا، يقترب كثيرًا من الموت، قد يموت قريبًا وأتزوج نجوى، وأصبح مدير المصنع، لم لا؟ ما أجمل الأحلام.

العمل يسير في المصنع على قدم وساق، كل عامل في داخله قناعة أنه ربما يستثنى من القرعة إن كان مخلصًا في العمل، والأسطى عطية الحقود أصبح لطيفًا معي بقدرة قادر، شعلة نشاط متأججة، يحث العمال على العمل المتواصل، إنه الطمع والجشع يحرك الناس أكثر

من الحب والإخلاص.

حاولت التهرب من سلمى، كلما تظهر لي أشيح عنها وجهي كأني لم أرها، وعند الساعة الثانية عشرة رن الهاتف، شعرت لهنيهة بأني أحلم، فقد بدأ اليأس يتملك مني.

-الملكة؟

-ومن غيرها يا ظريف، هاهاها.

-أين اختفيتِ؟ لقد انشغلت عليكِ حقًا.

-حبيبي أنت يا عماد.. ربي لا يحرمني منك.

-هل سأراكِ بالمساء؟

-لا أريدك الآن.

-لكن العمل.

-تصرف ليس لي شأن بعملك.. لو أتيت لي خلال نصف ساعة سوف.. هاهاها.

-"سوف ماذ....؟".

أغلقت الهاتف ولم تنتظر سماع سؤالي، بدأت الحرائق تشتعل في جسدي، في أذني وفي قلبي وفي ساقي، بدأت الحمم البركانية تتدفق

obeikan.com

في شراييني وأوردتي، قلبي ينبض بعنف، وتداخلت عناصر المشهد أمامي، أسوار المصنع تزداد ارتفاعًا وسمكًا، تحجب السماء والهواء والرؤية، لكني مجنزرة يقودها مخمور، وسأهدم أي حاجز يقف أمامي دون أي تردد، خرجت من المصنع غير مبالٍ بالنظام ولا بعارف بيه نفسه، ولا بكل من وقف يرمقني وأنا أسير منومًا نحو البوابة.

سوف ماذا؟ هل سيكون لقاء اليوم حميميًا، هل تشتاق لي لهذه الدرجة، تستبد بس الشهوة، أفكر الآن في ثيابها ترى كيف سيكون؟، قصير أم طويل، ضيق أم واسع، كيف سيبين نهديها المتوثبين؟!

فتحت لي السيدة السمراء مما أصابني بالذهول، هذه المرأة تتلاعب بي بلا شك، لعنها الله.

-أهلًا يا عمدة يا غالي.

جالسة بالداخل على الكرسي الملكي المذهب بين يديها مجلة أزياء عالمية، ترتدي فستانًا أسود اللون بحمالتين، يبين جل صدرها، ضيق من خصره ليبرز بشكل صارخ حجم النهدين واستدارتهما، ثم يتسع من الأسفل، قصيرًا يبين فخذيها، فستان كهذا على جسم بض أسمر ملتهب يفقد الإنسان توازنه.

-توقعت أن تكوني بمفردك!

-لا تقلق سوف تخرج بعد قليل لشراء طعام وبعض احتياجات المنزل.

أحضرت السيدة السمراء كأسًا تجمعت حبات الندى على بلورته، به عصير برتقالي مثلج، ثم خرجت من المنزل وأغلقت الباب وراءها، شعرت حينها بدقات قلبي تتزايد، أحاول كتمان أنفاسي اللاهثة، ثقل جسدي وتصلبت أعصابي، وقفت الملكة بطريقة مفاجئة ثم دخلت بخطوة متعجلة تنقر الأرض "الباركيه" بكعبي حذائها الرفيع العالي، كان وقع الخطوات مدويًا على نفسي، ترى ماذا ستفعل بالداخل؟ هل ستخلع ملابسها؟ وإن فعلت هل سأستطيع هدم الحائط الذي حافظت عليه ثلاثين سنة؟

رجعت بنفس السرعة التي ذهبت بها، أحضرت زجاجة عطر وبذلة سوداء وقميصًا أبيض اللون وثياب داخلية جميعها جديدة في أكياسها.

-خذ هذه الأشياء اشتريتها لك بالأمس، استحم وبدل ثيابك حالًا.

لماذا أبدل ثيابي؟ توقعت أن يتم الأمر دون ثياب، لكني على أي حال كنت منصاعًا لها وقلت لنفسي سر معها حتى النهاية، دخلت الحمام، أنظر حولي أفتش عن شيء ما، كيف تعمل هذه الأشياء، أزرار كهربية وصنابير زرقاء وحمراء، على أي مهمة الاستحمام ليست بالمهمة المستحيلة، استحممت ثم ارتديت الثياب كلها، فتحت الباب وخرجت إليها، عندما وقعت عيناها عليّ بدت فيهما دهشة كبيرة.

-ما أجملك يا رجل!

سحبتني من يدي وأخذتني لغرفة النوم، أمام المرآة مباشرة أوقفتني، لأرى ذلك الرجل الراقي الأنيق، يشبهني تمامًا.

-أنظر لنفسك لتعرف كم أنت جميل!

قامت بتصفيف شعري، ثم تناولت علبة مكعبة وفتحتها، أخرجت منها زرين ذهبيين وركبتهما في أسفل كمي، ثم أخرجت رابطة عنق، ثم الجوارب والحذاء الأسود اللامع، وكان ختامه مسك، حيث نثرت عليّ ذرات عطر باريسي رائع، وضعت يدها على ظهري ونظرتْ للرجل الواقف في المرآة بعين شبقة:

-ما رأيك الآن؟

لم أصدق أن الثياب تحوّل ذلك الشاب المنهك لنجم هوليوودي الملامح، ماذا أقول لك وأنت تصنعين المعجزات في زمان بلا أنبياء ولا رسل، انظر لنفسك جيدًا يا غلام، وتأمل ما صرت إليه، شاب رشيق نحت جسدك الجوع والوقوف لثماني ساعات يوميًا على رجليك في المصنع، ذو لسان لبق متقمص شخصية عارف بيه، شموخ ورقي مستوحى من نجوى، وأناقة فريدة ألبستك إياها الملكة، ذلك الرجل الجديد الواقف أمامي جدير بالملكة، ولكن ماذا بعد؟ هل سنرقص رقصة هادئة على ضوء الشموع؟ هل سأحيط خصرها بذراعي ليلامس صدري نهديها؟

-ماذا سنفعل الآن؟

-سنخرج، عندي زفاف لصديقة مصرية مقربة لي ولا يليق أن أكون فيه وحيدة، هل يرضيك أن تكون الملكة وحيدة بغير أنيس؟

***

زفاف بالنهار يا للعجب، في بيت العروس، عندنا بالشارع يبدأ الزفاف من بعد صلاة العشاء وحتى الساعات الأولى بعد منتصف الليل، خرجنا من المدينة وزحامها كخروج الشعرة من العجين، إلى أين نحن ذاهبان يا ترى؟، اللوح المعدنية تقول إننا نسير في طريق الإسكندرية الصحراوي، هل سنذهب إلى الإسكندرية؟

-أين الزفاف في هذه الصحراء القاحلة؟

-لا تتعجل يا فتى عشر دقائق فقط وسنصل.

هنا في الصحراء بعيدًا عن تلوث الماء والهواء اللذين أصابا الرئات وكلى العمال بالأمراض الخطيرة، لقد أفسد المترفون مدينتنا بمصانعهم وراحوا يبنون لأنفسهم جنانًا وفراديس في قلب الصحراء النقية الوديعة الهادئة، مدن رائعة الجمال محاطة بأسوار مرتفعة، تحمي سكانها من اللصوص ونظرات الحاسدين، الزفاف هنا في قصر كبير يقف بين عشرات القصور في هذه المدينة، يحيط به سور متوسط الارتفاع من الشجر، الحديقة التي تملأ المساحة بين القصر والسور قد تزيد على الفدانين، أمام الباب الداخلي لمبنى القصر

obeikan.com

مرصوص أكثر من خمسين مائدةً، وأمامها مسرح بثلاث درجات يحمل الآلات الموسيقية، والعازفون يعزفون ألحانًا أجنبية هادئة، وفي الجانب الآخر وهو الجانب الأيمن أريكة مكسوة بقماش فضي لامع تتسع لفردين، مؤطرة بجدائل فضية وذهبية توزع عليها ورود مختلفة الألوان، مؤكد أنها أريكة العروسين.

يبدو أننا حضرنا قبل الزفاف بفترة ما، لا يهم فالجلوس في الجنة لا يصيب الإنسان بالملل، توالى الحضور سريعًا، لم آخذ فرصة كافية لإعطاء كل شيء حقه من الانبهار، الملكة تنظر للسيدات والفتيات، شقراوات وسوداوات الشعر، نحيفات وسمينات، طويلات وقصيرات، عاريات ومحتشمات، شعرت بقوة مؤقتة إذ إن الحفل مليء بالملكات، لحظة انكسار الغرور هي لحظة مناسبة للانقضاض على الفريسة، ستكون في قمة الضعف، وفي أمس الحاجة لكلمة تعيد لها ثقتها بنفسها، حينها ستشعر بانتشاء يسكر عقلها ويطوّع إرادتها.

لم يتعرف أي الحضور عليها حتى اعتقدت أنها متطفلة، وأنها ستضعنا في موقف محرج لكن العروس أشاحت لها بذراعها وابتسمت لها ابتسامة ترحيب واسعة، بدأ الحفل بأغنية حب هادئة دافئة، رقص العروسان عليها والضيوف متحلقين حولهما يتمايلون كأمواج هادئة، وبعدها بدأت الأغاني تزداد رشاقة حتى أصبحت صاخبة، صاحبات العروس ترقصن كالمجنونات في حالة هستيرية، والشباب يراقصون

العريس ويلمحون بحركات وإيحاءات فاضحة، ثم قاموا بحمله وإلقائه للسماء عدة مرات حتى انخلعت سترته وخرج القميص من البنطال، لم تقنع الملكة بدور المشاهدة في هذا الحفل الصاخب فقامت إلى الفرقة الموسيقية تطلب أغنية ما فانطلقت على إثرها موسيقى ذات إيقاع خليجي راقص، ثم طفقت ترقص وحدها، تطوح شعرها الأسود الطويل يمينًا ويسارًا، وتضم فخذيها المكتنزين النصف عاريين وتنزل رويدًا ثانية ركبتيها، لن تقبل الملكة بأقل من أن تكون نجمة الحفل الوحيدة حتى لو اضطرت للرقص عارية، جسدها هو أعظم ما تملك وسلاحها الذي لا يقهر، الشباب والرجال عيونهم الشاخصة تتحرش بكل جزء فيها، والبنات اللواتي يبدين مبتسمات يظهر في عيونهن الغل والغضب، بعض الرجال كانوا يرمقوني من وقت لآخر، كنت أريد أن أقول لهم لا تقلقوا مني أنا مجرد أنيس بالأجر، ولكن لم الصمت والكل يصرخ، أنا الشاب الأجمل أليس كذلك؟، هناك فتيات تنظر لي لم لا ابتسم، أثير غيرة الملكة، جلستْ خائرة من الرقص تقول لي: "الحذاء مزق كعبي اللعنة عليه"، ثم جاء وقت الطعام، هي قامت بجرأة نادتني لكني امتنعت فأنا شبعان جدًا، شبعان بالخجل، يجب أن أحافظ على ما تبقى من كرامتي، وقفتْ بجوار شاب طويل رفيع أنيق، تبادلًا كلمات قليلة ثم صافحته بحماس وتبادلا ابتسامات ذات دلالات، ثم جلستْ على الطاولة وعيناها تراقبه أينما ذهب

-من هو يا ترى؟

-ألا تعرفه حقًا؟

-لا أعتقد أني شاهدته من قبل.

-ألا تشاهد التلفاز يا رجل؟

-لا لقد أفسدته سعاد من عدة أشهر.

-إنه ممثل مشهور جدًا.. ياه يا عماد كم أنا مبهورة به، إنه أجمل مما يظهر في التلفاز بكثير.

وقبل نهاية الحفل قالت: إنها سوف تذهب للحمام لإصلاح زواقها، غابت كثيرًا ثم عادت تضحك منتشية.

سكتت الأغاني وتفرقت السيارات، انتهى الحفل هناك ولا زال هنا مشتعلًا، تقود السيارة زائغة العينين، تضحك بلا سبب واضح، تبدو سكرانة أو مخدرة، ماذا حدث في تلك الدقائق بين ذهابها للحمام لتصلح زواقها وعودتها؟ ستجنني تلك المرأة.

-أنا سعيدة جدًا يا عماد، لا تتخيل مدى سعادتي.

شغّلت أغنية خليجية وأخذت ترقص وتغني، حركات عنيفة وصوت عالٍ، تاهت معالم الطريق في عيني وانخفضت الأصوات، ظهر أمامي عماد بملابسه القديمة يتحرك بخطوات وئيدة نحوي يحدثني بصدى

صوت مزعج: "انغلقت الدنيا عليك يا غلام، قل لي ماذا تشاهد في ظلام حالك الآن، أنت بطل فيلم القواد والعاهر، نعم لم تكن سوى قواد، يوصل العاهرة لكنه لا يطأها، ولن يجرؤ حتى على لمسها".

هدأت السرعة والسيارة تنعطف نحو الرصيف.

-سيدتي هذا المكان بعيد جدًا عن بيتي!

-لا يهم يا عماد خذ سيارة أجرة.

-لا توجد مشكلة لكن كنت أحتاج لأجر مناسب، فأنا أحتاج لمال كثير بشكل ضروري.

فتحت حقيبتها السوداء الصغيرة وأخرجت منها نقودًا ورقية لم تعدها، أعطتني المبلغ كله.

-خذ أنت تستحق الكثير يا وجه الخير.

حقًا لا توجد مشكلة، سأسمح لك بالتلاعب بي وسأسمح لنفسي بابتزازك.

***

أصبحت صورتك الآن أمام الناس أرقى، تتساءل عيونهم، من أين له كل هذا؟ سأشرح لكم أيها البؤساء كيف يصعد الناس في هذه المدينة

obeikan.com

التعيسة المترعة بالزيف، أفضل صورة للصعود وأرقاها عندما تتحرك وأنت ترتدي عباءة المبادئ، أن تستفيد بسمعتك الجيدة بين الناس، مصداقيتك، فعندما تكذب سيصدقونك، عندما تقتل لن يشك فيك مخلوق، عندما تسرق، عندما تزني، أنت بريء، بريء لا تقلق.

ما عليّ إلا أن أترك عارف بيه يتقمص دور الفيلسوف الحكيم، وأتركه يستمر في عروضه المسرحية، وأبين له أنه الأب الأعظم للحكمة، أما تلك العاهرة وبعد أن شاهدت تلاعبها الصارخ بي أكثر من مرة فمرحبًا بالتلاعب، المهم أن تدفعي الثمن، الفرصة لا تأتي مرتين، وسوف أحيا بينكم كوحش فهم طريقة تفكيركم وما يدور بنفوسكم وسيأخذ منكم قدر ما يستطيع.

obeikan.com

"الخديعة"

ويحدث أن تتحول جدًا وتقرر أن تصبح الشيطان الأعظم، وتخرج من بيتك متحصنًا بعقل شديد الانتباه واعيًا جدًا لأهدافه الجديدة.

أهـرول في الطريق متحمسًا لتجربة تلك الحياة الجديدة، لذلك الإنسان المنزوع الضمير والرحمة الذي قرر التلاعب بالجميع، لقد أسرتني تلك الصورة في المرآة لعماد الثري الأنيق، سأحاول أن أصل إليها وأحافظ عليها بكل الطرق الممكنة.

بمجرد أن وصلت إلى المصنع وجدت ورقة كبيرة مكتوبًا عليها:

"اليوم تحديد المصير والاجتماع الساعة التاسعة في قاعة الاجتماعات".

سرت بين العمال، رأيت في عيونهم انعكاسًا لصورة الحبل، مصيرهم يسير الآن بحذر فوق الحبل، الحبل الذي يتأرجح بين الأمل والخوف، مقامرة عظيمة نسبة نجاحها ستة وستين بالمئة ونسبة الفشل أربعة وثلاثين، إما زيادة كبيرة في الأجر وإما الطرد، تخيل لو قالوا لك سنعمل قرعة بين هلاكك ونجاتك وكانت نسبة نجاتك تسعين بالمئة ونسبة الهلاك عشرة هل كنت ستشعر بالفرحة، قد تعتقد أن هذا حقًا

شيء مفرح، لكني أقول لك: مؤكدًا أنك لو خضت هذه التجربة حقًا لعرفت أنها مريرة، ولو كانت نسبة هلاكك هي واحد بالمئة فقط.

ملامحهم المضطربة القلقة تسألني: "هل ما سنفعله صواب؟"، الحقيقة يا رفاق أنتم أمام المنافق الأعظم الذي سيشرف على إرسال مئتي عامل منكم إلى الجحيم، وكلي اطمئنان أني خارج القرعة وأني فوق القانون، محصن، تهزر بنتان من العاملات ملامحهما تحمل ابتسامة الحسرة توقن كل واحدة فيهن إنها الإنسانة الأكثر نحسًا على وجه الأرض، من مِن العمال كان محظوظًا ذات يوم؟ أما الأسطوات فيسابقون الزمن ويقومون بإقناع كل من هدد برفض التوقيع بالموافقة على نتائج القرعة، ولكن الجميع يغفل أن الزمان وإن كان يبدو أنه يسير ببطء، فهو على الأقل لا يتوقف لذلك فهو يسبق الجميع في النهاية.

صعدنا لغرفة الاجتماعات وجلس كل واحد منا في موضعه السالف، وأقر الجميع بالموافقة من حيث المبدأ على ما اقترحه المهندس عارف في الاجتماع السالف، فأخرج الرجل صيغة الموافقة.

"سيتم عمل قرعة يتحدد بناءً على نتائجها فصل مئتي عامل دون الرجوع بأي حقوق قانونية أو مادية على المصنع، في المقابل سيتم تحديث الماكينات وزيادة المرتبات بنسبة خمسين بالمئة في فترة أقصاها ستة أشهر".

وأسفل هذه الصيغة يوقع المهندس عارف وعشرون خانة فارغة ليوقع فيها العمال والمهندسون والمشرفون، الجميع بلا استثناء، في عدد خمسة وثلاثين ورقة، ولم يضيّع المهندس وقته وأخرج من الخزينة الخمسة والثلاثين ورقة وقام بالتوقيع عليها جميعها، وزع الأوراق على الكبار من المصنع سواء كانوا مهندسين أو مشرفين أو أسطوات، كل واحد يكون على رأس قائمة، وسيختار الباقي بصورة عشوائية.

أصبح اليوم مثل يوم الانتخابات، وزعت الأوراق على العمال، سبعمئة توقيع أغلبهم مرتعش، لم تأخذ العملية أكثر من ساعة واحدة حتى وضع الجميع موافقتهم الصريحة، قام الأسطوات والمهندسون والمشرفون بلم الأوراق جميعها موقعة، ثم سلموها لوليم عزيز فطرق الباب ودخل إلى المهندس عارف وبعد دقيقة واحدة فتح الباب ودخل الخمسة وثلاثون الذين على رأس القوائم، وكنت واحدًا منهم وإن كنت لست من الكبار لكني كنت استثناءً، وقفنا لنشهد القرعة بأم أعيينا ولنتأكد من مصداقيتها وشفافيتها، ستوضع الأوراق مطوية في صندوق زجاجي ويقوم واحد منا بسحب خمسة وعشرين قائمة تشمل خمسمئة اسم، وهم من سيتبقون، والاسم الذي سيذكر سيعرف العمال الباقون في القائمة مصيرهم بالتبعية، والمتبقون سيكونون خارج المصنع بمجرد انتهاء الشهر الميلادي الجاري.

هذا الإجراء كان غير متوقع، ربما لدى عارف بيه خدعة ما ليحافظ

بها على عهده مع الأسطوات، رأيت العرق ينهمر منهم بكثافة كأنهم محمومون، وبدأت عمليه الميلاد والوأد، كل قائمة تعرف مندوبها، وما مصيري أنا ساعده الأيمن وولده الموعود، وأنا الآن مجرد اسم من ضمن الأسماء المحشورة بالورق؟!

بدأ الأسطى جمعة بسحب الأوراق ويناولها لوليم عزيز ويقوم الأخير بالنداء على رئيسها

١-قائمة الأسطى محمد عبد القادر.

٢-قائمة المهندس محمود صلاح الدين.

٣-قائمة المحاسبة سميرة عبد الحميد.

وتوالت القوائم ولم نسمع بعد قائمتي وقوائم الأسطوات الذين حضروا الاتفاق، ولا واحد فيهم، أمر عجيب حقًا، وعند القائمة العشرين كتبت لي شهادة الميلاد، لم أصدق نفسي أني كنت على حافة الهاوية، وكنت سأواجه مصيرًا غير متوقع بالمرة، وانتهت الخمس قوائم الأخيرة ليعلم الجميع أن نصف الأسطوات قد استبعدوا، وخاصة كل المشاغبين والمحرضين بالمصنع، هل هذا معقول؟ مستحيل أن تكون مصادفة، لكنا رأينا بأم أعيننا كل شيء يتم بشفافية، دعنا من هذا كله أين وعد المهندس عارف الذي حصن فيه الأسطوات من الفصل.

الأسطوات يكظمون غيظهم وما زال عندهم أمل أن يكون بالأمر خدعة،

وأن عارف بيه لن يتخلى عن وعوده لهم، تيقن العمال من مصداقية القرعة وخاصة بعدما استبعد بعض الأسطوات الذين كانوا حريصين على إقناعهم بالفكرة، الفوضى بالباحة السفلية عارمة، من سيستمر في المصنع يفرح فرحة لا مثيل لها، العاملات تجمعن في حلقاتٍ فرحاتٍ يطلقن الزغاريد ويرقصن، والباقيات المستبعدات يبكين ويلطمن وجوههن.

أقبل عليّ الأسطوات المستبعدون وأولهم الأسطى عطية، وكان وجهه مخيفًا يتطاير الشرر من عينيه.

-اصعد وتحدث إلى عارف بيه عن أمرنا، لا ينسى وعده لنا، أقسم بالله لو تخلى عنا لنشربن من دمه شربًا.

صعدت لأسمع لكلام المهندس عارف ولأتأمل قسمات وجهه ونظرات عينيه، لكني وجدت زحامًا من رجال الأمن يمنعون وصول أي عامل لمكتبه، وكان وليم عزيز يقف خلف الفوضى فناديته وطلبت منه أن يبلغ عارف بيه بأني أريد مقابلته لكنه أبى، وقال إن عارف بيه يمنع أي لقاءات من العمال حتى نهاية الشهر ويجب على الجميع القبول بنتائج القرعة.

لم أملك إلا أن أبلغ الجميع بما حدث وانسحبت لركن بعيد أحاول فك طلاسم كل ما حدث، الأمر لا بد فيه خدعة، لا أصدق أن الأمر تم

محض صدفة أن يتخلص من جميع العمال والأسطوات المشاغبين بضربة واحدة، ولم يتم استبعاد أي واحد من السكرتارية والمهندسين المقربين وأغلب المشرفين، تبدو العملية انتقائية بنسبة مئة بالمئة، اليوم هو يوم اثنين وعشرين ويتبقى لنهاية الشهر أسبوع كامل، لن أتمكن من لقائه وفهم ما يدور قبل نهاية الشهر، يحدجني عطية بعينيه المحولتين، نظراته مشبعة بالغضب والرغبة في الانتقام والفتك، لكني لا أملك من الأمر سوى أن أدخن السجائر حتى آخر الشهر.

سلمى تحوم حولي ولم أعرف بعد مصيرها، لا تبدو سعيدة فذهبت إليها غير عابئ بالعيون اللائمة، فاليوم لا أحد يبالي غير بنفسه.

-قولي لي كيف صارت معك الأمور؟

-الحمد لله باقية.. مبارك لك أيضًا.

سكتُ لبرهة وتأهبت للاستئذان منها لكنها نظرت في عيني متفحصة باحثة عن إجابة لأسئلة ما في عقلها ثم تحدثت مرة أخرى:

-أريد أن أراك اليوم وأرجوك ألا تؤجل اللقاء.

-ولكن.

-أرجوك.

***

لا أعتقد أن لك مكانًا مناسبًا يا صغيرتي في المرحلة المقبلة، أنت وأمك غارقتان في مستنقع من العقد والصراعات وسوء الظن والشك الدائم وعدم الثقة، غير الفقر المدقع الذي أعاني منه مثلكما تمامًا، صدقت أمك عندما قالت كيف لعليل أن يتزوج عليلة، الفقر هو العلة الكبرى في هذه الحياة، المستقبل أمامي لن أفلته من أجلك ولا من أجل أي إنسان آخر.

حضرت البنت شاحبة تفتقر عيناها للثقة، ما أقسى أن تفقد العيون بريق الثقة، الثقة ترفع الناس مهما تدنت حقيقتهم، تمنحهم القوة والتألق والجاذبية.

-لماذا تتهرب مني يا عماد؟

-سلمى أقسم لك أني أحببتك حقًا وتمنيت يومًا أن أتزوجك، لكن أشياء كثيرة تغيرت بعد لقاء أمك، قررت ألا استمر في هذا الأمر، أنا فقير وأنت فقيرة، سنبني بيتًا هشًا لن يحتمل عواصف الحياة، ربما يأتي يوم أعجز فيه عن سد حاجاتنا اليومية، وأسقط أمامك وأمام أمك وأمام نفسي، كم هذا مخيف ومؤلم يا سلمى!

كنت أتحدث مطرقًا وجهي للأرض أخشى أن تتلاقي عينانا، تعجبتُ من صمتها فرفعت عيني قليلًا فإذ بها تمسح الدموع التي تنهمر كشلال أخرس، يغرق الدنيا بغير صوت، سكتُ قليلًا لأسمح لأذن المجرم الذي استباح قلبها أن تسمع نشيج الضحية.

obeikan.com

-سلمى أرجوكِ لا تصعبي عليّ المسألة، لا أريد أن أجرحك لكن الواقع هو الجارح الحقيقي، أرجوكِ سامحيني وساعديني على تخطي ألم الفراق، وليدعو كل منا للآخر بالتوفيق.

جبال فوق رأسي، جبال فوق قلبي، جبال فوق لساني ما كل هذا الثقل، حتى صمتها ثقيل جدًا، لم أعد أسمع صوتها.. نشيجها.. نهجانها، لم يعد يلفحني سعيرها، ما أصعب أن ينهزم الإنسان في صمت، يُظْلم في صمت، يتألم في صمت، نظرت فإذ بي وحدي، أنا وحيد جدًا، فتشت عيناي الناس حتى لمحت ظلها الأسود الباهت يذوب وسط كتل الألوان المتلاطمة المتزاحمة، انسحبتْ فقط انسحبتْ دون أن تنبس بكلمة، دون أن تدحض الحجة بالحجة، دون توسلات، يا إلهي كم أنا حقير!

ماذا ترى الآن أمامك إن كان قلبك أعمى، كيف سترى النور، كيف سترى الجمال، كيف سترى الصدق، هل ترى حقيقتك الآن جلية؟! نذل كبير ألست كذلك، لكنك لم تجد الفرصة المواتية للتعبير عن نفسك، كيف ستنام الليلة وغدا وبعد غدٍ، كيف ستعيش متغاضيًا عن دموعها كيف؟ كفى.. كفى، ليس مهمًا أي شيء فقط لننتهي من سلمى ونفكر في القادم، سوف تنسى ربما بعد أسبوع أو أسبوعين أو شهر أو سنة مؤكد أنها ستنسى في النهاية.

اليوم يكاد ينقضي والملكة لم تتصل بعد، يبدو أن اليوم سينتهي نهاية مأساوية، رمتني موجة الضياع لشواطئ شارعنا الموحلة صعدتُ

سلم البيت أجر ساقين متيبستين ثقيلتين كأنهما مصبوبتان حديد مصمت، وجدت الباب مفتوحًا والدنيا منورة وجارتي العزيزة تجلس مع نجوى وسعاد بالردهة، قامت نجوى برشاقة وتعاملت معي بصورة ودية لشخصين يعرفان بعضيهما من سنوات، وانهدمت بينهما حواجز الرسميات والتحفظ وتآكلت بينهما المسافات.

-تعال يا عماد أريدك في أمر مهم.

هل جاءت اللحظة المناسبة للإفصاح عن مكنونها ومخططاتها؟ لم تطق الانتظار، وقفنا في الشرفة والهواء الذي لم يمر على نفس مطمئنة واحدة في هذا الشارع جاء يتمسح فيها، تمسح الهررة بأصحابها، شعرها الحريري يتطاير فيغطي وجهها وتحاول مرارًا السيطرة عليه لكنها تفشل، فدخلت وأحضرت طوقًا مطاطيًا يخص سعاد فضمت شعرها للخلف ليبدو كذيل الحصان، انكشف وجهها بالكامل، معلق في أذنيها قرطان ككوكبين دريين، وتحمل وجنتاها بسمة حزينة، وفي عينيها بريق مرتعش أضل الطريق.

-قل لي يا عماد ما هي قمة أحلامك؟

-أقول لك بكل صراحة ووضوح.

-أكيد تكلم.

-من غير أن تنقلبي عليّ؟

-لا لن انقلب أقسم لك.

-أتمنى أن أكون سيدًا من سادة هذه المدينة وأن أتزوج واحدة مثلك.

ألقيت الكلمة ونظرت لعينيها أستطلع وقع الكلمة عليها، رأيت في عينيها بريقًا رائعًا وعلى شفتيها ابتسامة خجولة لطيفة فتشجعت على المضي قدمًا في حديثي:

-نجوى أنا حقيقي أتمنى أن أتزوجك، أشعر اتجاهك بمشاعر جارفة تسيطر على تفكيري.

احمر وجهها خجلًا وبدا عليها الارتباك.

-لكن أنا متزوجة يا عماد ربما لو كنت حرة لفكرت بجدية في الأمر.

-ولم لا تطلبي الطلاق؟

-عماد أنت لا تعرف شيئًا عن عارف، هو يستطيع أن يرميني إن شاء، أما أنا لو فكرت في البعد عنه فسيتحول إلى شخص آخر، أنت لم تعرف بعد من هو عارف، ولو علم في يوم أن بيننا شيئًا فقد يقتلنا بدم بارد ولن يبكي علينا ساعة واحدة.

اللوحة التي مكثت أرسم فيها بخيالي، وتركت لعقلي العنان لتكوين تفاصيلها وملامحها تشتت في لحظة واحدة من بعثرة يديها.

-آه لا توجد مشكلة قولي لي ماذا كنتِ تريدين مني؟

-الأول أوعدني أنك لم تتضايق من حديثي.

-دعك مني وقولي لي ماذا تريدين؟

- كنت قد حدثتك عن شيء سأطلبه منك وأنت وعدتني بأنك لن تخذلني.

-حدث فعلًا لو تطلبين عيني لن أتأخر.

-أريد سعاد.

-سعاد!! كيف؟

-أريدها أن تحيا معي، أتبناها مثلًا .. أرعاها.. أي شيء المهم أني أريدها معي، أنا أحبها حبًا عظيمًا وأتمنى لو تحيا معي ما تبقى لي في هذه الحياة.

-لا مستحيل أنتِ لا تعلمين أن سعاد هي الشيء الوحيد في هذه الحياة الذي يشعرني بالأمان، الإنسانة الوحيدة التي يشعرني حضنها بالأمان والحنان بعد أمي.

-عماد فكر في مصلحتها ولا تكن أنانيًا، هل تعرف شيئًا عن مرض سعاد؟

-نعم أعرف الكثير.

-ربما تعرف بعض المعلومات الضئيلة لكن دعني أقول لك ما أعرف

obeikan.com

بالتفصيل، سعاد مصابة بمرض يدعى متلازمة داون، يؤثر على الحركة والنطق بسبب تراخي العضلات، ويؤثر على نموها وقدراتها الإدراكية، وقد يكون عندها تشوهات خلقية داخلية، كل هذه الصفات لا تمنع تطورها الإنساني فبالتمرينات والرعاية المتخصصة العلمية نستطيع أن نطور قدراتها بشكل عظيم، تستطيع أن تندمج في المجتمع وتتزوج وتنجب، لو تركتها لي سأتفرغ لرعايتها، لن أبخل عليها بالمال ولا بالاهتمام، تحتاج لمدارس وأماكن رعاية متخصصة لتنمية قدراتها العقلية والجسدية.

هناك أشياء عجيبة في الحياة لا يمكن التعبير عنها، مثل حبي لسعاد هو لغز الألغاز، ما هذه الراحة والفرحة والسعادة التي تنتابني عندما أراها، إنها تشعر بحزني وألمي تأتي لي وتعانقني، تحمل رائحة أمي وحنانها، لا تفارق الضحكة والبسمة شفتيها، حتى لو كانت دائمًا تربك حياتي ولا أستطيع السفر أو التأخر لأي سبب من أجلها، حتى إن كنت أعجز عن مرافقتها وخدمتها بالشكل اللائق، صحيح أن عقلها متأخر قليلًا لكنها تملك حاسة عجيبة فهي تحس بي حتى لو كنت ابتسم لها حتى لو كنت ألاعبها وأضحك معها، هي تعرف ما بي من ألم ورغبة في البكاء، إنها تعرف أن الناس تصلي وتلومني لأني لا أصلي مثلهم، لم أفكر ليوم واحد أن أعيش دونها، لكن وبعد أن قدمت نجوى يدها لتنقذها وتساعدها سيكون من المستحيل أن أولي لها ظهري سأكون

أنانيًا حقيرًا وأنا لن أكون حقيرًا أبدًا مع سعاد.

-أرجوك يا عماد لا تفكر في نفسك، لقد كبرت البنت وتحتاج لرعاية خاصة وأنت ستتزوج عاجلًا أم آجلًا وستكون سعاد عقبة في طريقك، وقد تعاملها زوجتك بقسوة.

-أرجوكِ يا سيدتي دعيني أفكر في الأمر فهو ليس بالهين.

عندما سردت الأمر على الحاجة فوزية بعد ذهاب نجوى بكت ورفضت وثارت ثورة كبيرة، ثم خفتت خفوتًا عظيمًا وقالت لعلها تجد هناك فرصة أفضل يا ولدي.

***

هل تعلمين يا حبيبتي أنك الشيء الوحيد الجميل في هذه الحياة، عانقيني وامسحي دموعي لكن لا تبكي، أنا فقط سأبكي على صدرك لأني ملوث جدًا وأحتاج لطهرك ونقائك، ستأخذك السيدة الحلوة نجوى وستعيشين معها في قصرها، سيكون عندك ألعاب كثيرة، ملابس جميلة، فساتين بيضاء وصفراء وزرقاء وحمراء، كم ستكونين جميلة يا حبيبتي، تخيلي بالأمس بعت كرامتي، واليوم ذبحت سلمى بسكين حاد، آه يا حبيبتي دعيني أمسح دموعي بثيابك، دعيني أبكي، أريد أن أصرخ لولا خوفي عليك من الفزع، سيكون عندك حديقة فيها أشجار وورود،

obeikan.com

وأرجوحة تهتز هكذا، آه تمايلي للأمام وللخلف يا حبيبتي نعم هكذا تفعل الأرجوحة تعالي ضعي رأسك على صدري سوف أحكي لك حكاية أتمنى ألا تكون الأخيرة:

"كان يا ما كان في سالف العصر والزمان، ولا يحلو الكلام إلا بالصلاة على النبي العدنان، أميرة جميلة تعيش مع أخيها الذي يحبها أكثر من الدنيا وما فيها، جاءت إليهما سيدة جميلة وعظيمة وحنونة قالت له: عندك زهرة إن استمرت في حديقتك ستذبل سريعًا، تحتاج لتنتقل لمكان ملائم لها، سيخدمها الملائكة وتحقق فيها كل أحلامها، السيدة هي نجوى".

-نجوى.. أحبها.

"آه يا حبيبتي وهي تحبك جدًا ربما حبها لك كحبي وأكثر، ستكون هي أمك في الأيام القادمة وأنا سأزورك من حين لآخر".

جاء الصباح كما الليل حزينًا، سعاد نائمة تسبح في أنهار الفردوس هانئة، أما أنا فأرى الحياة مظلمة خانقة، آخر شيء يفرحني في هذه الحياة سيؤخذ مني.

اليوم الثاني بعد القرعة، لا يوجد عمل بشكل حقيقي، الذين يعملون بشكل منتظم هم السكرتارية وأفراد الأمن والفراشون وعمال النظافة، كنت أفكر في لحظة مواجهة سلمى، لكني لم أر لها أثرًا، الأسطوات

المستبعدون يجلسون دائمًا معًا يتحدثون بغضب واجمين، لكنهم لا يستطيعون تحريض العمال كما سبق فهم أول من أقنع العمال بضرورة القرعة، وأن يرضى كل واحد بنصيبه، يقينًا هناك خدعة قام بها الرجل لكن لا أعرف كيف فعلها، بعد أيام قليلة سيتم استبعاد مئتي عامل، كيف سيدور المصنع في تلك الفترة حتى تأتي الآلات الجديدة، وأنا متى سأسافر للتدريب على الإدارة الحديثة كما وعدني.. وعدني!! يا ربي لقد نسيت ما حدث بالأمس بإقصاء نصف الذين وعدهم، لو تم الإقصاء بصورة واقعية عملية فهذا مؤشر مهم على خداعه، ألم تحذرني نجوى؟ زوجته وأكثر إنسانة تعرف المخبوء، قطع حبل أفكاري واستنتاجاتي العبقرية رنين الهاتف، نجوى!! بهذه السرعة؟ أخذت رقمي بالأمس ولا تحتمل أن أفكر في أمر سعاد يومًا كاملًا أو يومين؟

-صباح الخير سيدتي.

-.....

-الأمر صعب عليّ أرجوكِ دعيني أفكر على مهل.

-.....

-نعم وعدتك لكنه قرار صعب.

-.....

- اسمعيني... أرجوكِ اسمعيني... أنا موافق لكن احضري بعد أسبوع

أريد أن أشبع منها.

كاد قلبي يقفز من الفرحة بسماع الرنين لكن اسم نجوى أحبطه، كنت أود لو تكون الملكة، لكن الملكة لم تتصل في هذا اليوم ولا الأيام اللاحقة، كل شيء اختفى فجأة عارف بيه وأحلامه، الملكة بمالها وجمالها وجنونها، سلمى مريضة متغيبة، كنت كصاروخ على أهبة الاستعداد للانطلاق ثم انفجر في قاعدته، لقد انتهى الحفل تمامًا، عدت وحيدًا مهزومًا مرة أخرى، ثم جاءت نجوى في الموعد المتفق عليه لتأخذ سعاد، لتستطر مشهد النهاية لرجل بائس فكر ذات يوم أن يحلم، كان بصحبتها خادمين، يحملان عدة حقائب، قاما بتنظيف الشقة وتبديل الملاءات وأخذوا السجاد البالي ورموه فوق سطح البيت ثم نزلوا فأحضروا سجادًا جديدًا وتلفازًا متوسط الحجم وبعض أواني وأكواب زجاجية جديدة، دخلت نجوى بنفسها وقامت بتحمية سعاد وألبستها فستانًا جديدًا أنيقًا يبدو باهظ الثمن، وحذاءً جديدًا، وصففت لها شعرها.

-هل السجاد والملاءات ثمن لموافقتي؟

-لا تكن أحمق يا رجل، أنت تستحق أن تحيا في مكان نظيف ليس إلا، وتأكد أن قرارك بترك سعاد لي ربما يكون القرار الأفضل في حياتك وسوف تثبت لك الأيام هذا.

-قولي لي لماذا لا أرى عارف بيه، كان يعدّني لأكون ولده وساعده الأيمن، وكانت هناك خطه لإرسالي للخارج.

-عارف مشغول في الآلات الجديدة، فقد تعاقد عليها منذ شهرين تقريبًا، وهو الآن في الميناء.

-كيف هذا؟ فكرة الآلات الجديدة هي وليدة اللقاء الأول بينه وبين الأسطوات الأمر كله لم يمر عليه أسبوع.

-لا أعرف، أنا لا أتدخل في عمله وهو لا يتدخل في حياتي.

خرجت نجوى تحمل غنيمتها، آخر شيء جميل وذات قيمة في حياتي، وتركت لي بعض الأدوات الجديدة، انطفأت الأضواء، انغلق الباب، صرت وحيدًا بلا أي شيء، ما زلت أشعر بعناق سعاد، بعطرها الجديد، ببريقها، كانت مبتسمة ومرتبكة، سعيدة بالفستان وبنجوى لكنها أيضًا تنظر لعيني وتنكسر فرحتها، أنا بخير يا حبيبتي طالما كنتِ بخير أقسم لك، وسأصلي من اليوم حتى تكوني فخورة بي، يجب أن أبحث عن شيء نقي تتنفس روحي من خلاله.

بالليل أفكر في حياتي كيف أحياها بعد سعاد، وبالنهار أفكر في حل ذلك اللغز، لغز عارف بيه الذي تعاقد على الآلات منذ شهرين، وقبل أن يعرف أنه سيكون هناك إضراب وأن الأسطوات سيختارون تجديد الآلات في مقابل تسريح ثلث العمال، يبدو لي أن اللغز أكثر تعقيدًا مما

أتصور، الآن أمل أن أسافر وأن أكون ساعده الأيمن تبدد تمامًا إلا أن الأحلام أحيانًا تراودني.

***

قررت أن أمر على المقهى، حيث إن البيت مميت دون سعاد، ابتسم لي السيد سامح وأقبل عليّ وصافحني بود بالغ:

-كيف حالك يا عماد؟

-الحمد لله بخير.

-وكيف أداؤك مع الملكة أتمنى أن تشرفني وترفع رأسي؟

-مر أسبوع ولم تكلمني.

-يبدو أنك أغضبتها.

-لا بالعكس فآخر كلمة قالتها لي "أنت وجه الخير".

-لم تفكر أن تذهب لها المنزل لتطمئن عليها؟

-لا، لقد نبهت عليّ ألا أحضر لها إلا بطلب منها.

ماذا سيحدث إذا ذهبت لها؟ سأقول لها إني جئت لأطمئن عليها، المبررات كثيرة، لابد أن تعرف أن علاقتنا أكبر من المال والمصالح المادية، توجهت مباشرة لشقتها بالطابق الرابع عشر، كان قلبي ينتفض خوفًا، خوفًا من أن تكون سافرت، أو تركت المنزل لأي سبب

obeikan.com

غامض، وقفت أمام الباب ألملم الأفكار والكلمات التي سأقولها، يجب أن أصدق الكذبة كي تصدقني.

فتحت الباب ووجهها مشرق كالشمس، مزوقة كما لم أرها من قبل، فستانها أكثر إثارة من أخواته السابقين، لكنها بمجرد أن استوعبت حضوري حتى غامت ملامحها وتوارت بهجتها يبدو أني الآن ضيف ثقيل.

-عماد!! كيف تحضر دون اتفاق ولا استئذان هل جننت؟

-خفت عليك، هاتفك دائمًا مشغول ولا تتصلين عليّ، خشيت أن يكون أصابك مكروه.

-لا، لا أنا بخير أرجوك اذهب الآن لأني في انتظار أقارب لي ويجب ألا يرون رجلًا عندي هيا لا تتسبب لي في مشاكل.

لم تنتظر ردي فقط دخلت وأغلقت الباب خلفها، وقفتُ أمام الباب لبرهة كالتمثال لا أقوى على الحركة، يا لها من صدمة، صفعة أفاقني من ذهولي صوت المصعد يفتح فتحركت صوبه لألحقه قبل أن يتحرك، لفت انتباهي ذلك الشاب الأنيق الجميل، رأيته من قبل، آه بحفل الزفاف، الممثل المشهور الذي لا أعرفه، مر بجواري ولم يعيرني انتباهًا، فوقفت أمام باب المصعد حتى رأيته يقرع الجرس.

كيف حالك أيها الشيطان الأعظم هاهاها، أيها الأحمق الأعظم،

من أنت لتعتقد واهمًا أنك ند لها أو لعارف، أن تكون لاعبًا معهما في نفس الملعب، وتريد أن تحرز فيهما الأهداف، وتحقق الفوز وتخرج من اللعبة بمكاسب مادية ومعنوية لا آخر لها، لكن في الحقيقة ربما يحتاجونك لتهيئة الملعب، لتنظيفه، إصلاح الأجزاء التالفة، لكن لاعبًا يلعب مثلهما مستحيل، احمد ربك إن عارف لم يجعلك من المطرودين وهي أهدتك بعض الأشياء الثمينة، لا تعتبره اهتمامًا بل عطف، أنت مجرد أداة لشيء ما ينكشف رويدًا رويدًا.

تم تسريح العمال والأسطوات، تم تنفيذ القرعة كما ظهرت، تم تركيب جهاز بصمة للعمال، وقام الأمن بمنع العمال المفصولين، وسلمى ما زالت غائبة.

جاء اليوم خبراء أجانب، وأخذوا يتجولون مع المهندس عارف في المصنع ويناقشونه ويشيرون إلى الحوائط والأرضيات والأسقف، نظر لي عارف بنظرة لا تحمل أي معنى، كأنه لم يتحدث إليّ من قبل، والعجيب أني لم أشعر أنه يمثل أو يصطنع التجاهل، هو بكل بساطة يبدو أنه لا يعرفني، بعدها استوقفت وليم عزيز وسألته عما يدور:

-إنهم مهندسون وفنيون أجانب حضروا للإشراف على تركيب الآلات الجديدة فهي ستركب خلال هذا الشهر، وسيقومون بتدريب بعض الأسطوات والمشرفين والمهندسين على العمل عليها.

-هل سأكون منهم؟

-الأمر سيتحدد بعد مقابلة شخصية سيحضر فيها خبير ألماني مع المهندسين والمشرفين والأسطوات وبناء عليها سيتم الاختيار.

سرت بالشوارع المظلمة بالليل، إنها تناسبني تمامًا، كنت على وشك القيام بأكبر عملية بيع للمبادئ في حياتي، كنت متأهبًا لأكون شيطانًا محترفًا، لكن يبدو أني أتفه من أن أكون شيطانًا أو ملاكًا.

رأيت السيدة الأربعينية التي راودتني من قبل، تقابلنا صدفة في أحد الشوارع الشائخة المريضة، بصيص من ضوء أصفر قادم من غرفة ما بأحد المباني انعكس على عينيها، لم تنظر للأرض كعادتها بل صافحتني، واعتذرت لي عما فعلت، وقالت لي: "مع الأسف كنت من المستبعدين".

-هل وجدتِ عملًا آخر يا سنية؟

-لا للأسف، لكن ربك لا ينسى أحدًا.

-ونعم بالله.

-أتدري أن سلمى هي الوحيدة بالمصنع التي كشفتُ لها عن حقيقة ما حدث بيننا، كانت واثقة تمامًا من براءتك، البنت تحبك جدًا وهي طيبة ومؤدبة، لا تخسرها يا أخي.

-أين هي لم أعد أراها؟

- الفتاة مريضة جدًا ولا دواء ينفعها إذ إن الطبيب لم يعرف لها مرضًا!

يا إلهي تلك الفتاة الرقيقة ضحية شيطان فاشل لم ينجح سوى في كسر مسكينة مثلها، كنت أكمم فم ضميري الذي يصرخ فيّ بالصباح وبالمساء، لكن هل يوجد شيطان بضمير.

حسمت أمري وذهبت إليها، كنت كلما اقتربت من بيتها خطوة أشعر بالراحة أكثر، يقل تأنيب الضمير أكثر، فتحت أمها حزينة بائسة، لم تتغير ملامحها كعادتها أصبحت محترفة في مواراة مشاعرها.

-سلمى نائمة بالداخل.

الغرفة مظلمة حزينة والبنت نائمة متدثرة بملاءة باهتة، نحف جسدها أكثر، لا تتحرك، لا حياة فيها.

-سلمى.. حبيبتي استيقظي أرجوكِ.

فتحت عينيها بصعوبة، نظرت لي وهي بين الحلم والصحو، ابتسمت، مدت يدها فمسكتها.

-حبيبتي أرجوكِ استيقظي أرجوكِ أنا قادم لك، ولن أذهب إلا إذا سامحتيني.

ترقرقت عيناها بالدموع فقبلتُ يديها واعتذرت لها كثيرًا، قالت لي أمها إنها لا تأكل تقريبًا.

-سأسقيكِ بيدي عصير البرتقال يا حبيبتي، تعالي أساعدك على الجلوس، كفى أرجوكِ امسحي دموعك، أقسم لك بأن نتزوج بمجرد أن تستطيعي القيام.

اتسعت بسمتها أكثر وبدأت الورود تلون وجنتيها، شربت العصير ثم اللبن، ثم بدت مطمئنة دافئة، يجب أن أربت على قلبها أكثر سأشتري لها الدبلة سأتزوجها حتى لو لم تقم من سريرها حتى لو أجلس تحت قدميها أخدمها حتى تبرأ.

obeikan.com

"الحبل يتأرجح بشدة"

شهر واحد تنقلب فيه الحياة، سمكة تخرج من عتمة القاع لتتجول في مدن الأحلام المبهرة، قررت أن تتخلى عن حياتها القديمة المظلمة، عن فطرتها ومبادئها ولكن ما هي النتيجة، عادت إلى القاع محسورة ذليلة، فاشلة، الحمد لله الذي نجاني في الوقت المناسب وقبل أن انكشف أمام الجميع، يكفيني انكشافي المخزي أمام نفسي، الآن أنا مدرك تمامًا أن من هم مثلي لن يستطيعوا القفز من فوق الحبل المرتعش للأرض الثابتة التي تنبت فيها الأحلام والاستقرار والرفاهية، لكني أستطيع أن أحيا بشرف وكرامة، ولن أسقط مرة أخرى في شباك الإغراءات والتلاعب.

آه بدأت أصلي من ذلك اليوم كما وعدت سعاد، وأقلعت عن عاداتي المهلكة، وأصبحت أنام على الجانب الأيمن ولا أتطلع إلى السقف الذي تسكنه العفاريت، لم تعد تصيبني الجنابة، الهزائم غيرتني حقًا، كانت الخطوة التالية الصائبة نحو الرقي الذاتي هي زواجي بسلمى، زفاف بسيط رقيق بالشقة حضره المقربون والقليل من الجيران، وكذلك الأمر بالنسبة لسلمى المسكينة التي خسرت الكثير من وزنها الخفيف

في الأساس، لكنها استرجعت الكثير من رشاقتها، وتوشحت بنور الفرحة والسعادة، كانت كالوردة في أول تفتحها والثمرة عندما تكتسب ألوان النضوج، كفها الصغير وأصابعها النحيلة تغفو بأمان على وسائد راحتي، تتمسك بها تمسك طفلة صغيرة بيد أبيها تخوض غمار شارع يضج بالزحام وبالخطر، أجمل ما في هذه الليلة هو أن كل الحضور يحبوننا وطيبون، وما أعظم أن تكون على يقين بأن ليلة زفافك ليس فيها حاقد ولا حاسد.

الشقة أصبحت جميلة جدًا، واسعة نظيفة منظمة، بعدما تخلصت من زحام الأثاث المحطم والبالي، وبعد أن دهنت الحوائط بألوان فاتحة رقيقة، استمتعنا بخمسة أيام لم تعفرُ أحذيتنا فيها أتربة الشارع، اختلف كثيرًا مذاق عناقي لها عما كان يحدث قبل الزواج، فقد كان بالأول عناق شهوة خالصة، أما الآن وقد علمت بمدى حبها لي الذي كاد يقضي عليها فإن للعناق طعمًا آخر، الدفء والاحتواء والطمأنينة.

مر أسبوع وكان الختام يوم الجمعة، حيث جاء لزيارتي الأسطى عطية واثنان من الأسطوات المطرودين، قاموا بالتهنئة بصوت مرتعش مهزوم، كانوا فراعين متجبرين في المصنع قبل الطرد الآن هم منكمشون مساكين.

-نريد أن نتحدث معك في أمر هام.

-تحت أمركم تفضلوا.

-لقد خُدعنا خدعة كبيرة من المهندس عارف.

-نعم أعرف ولكن ما الحل؟

-لا ليس الذي تعرفه.

-ماذا إذًا؟

-لقد كنا نتحرك في المصنع نقلب العمال ونشجعهم على الفوضى والإضراب بناءً على اتفاق بيننا وبينه، و.....

خرج الرجال من عندي بعد أن اطمأنوا أنهم بددوا غلالة الهدوء الجميلة وهالة الفرح، لقد كنت أداة تؤدي دورها بسذاجة لتحقيق أهداف عارف الحقير، والأسطوات الجشعون، كان يعرف أنه لا يوجد حل لزيادة أرباحه إلا بتحديث الآلات، واستبعاد ثلث العمال، سيزيد الإنتاج وتقل التكلفة كثيرًا، لكن كيف يتثنى له كل هذا، لن يستطيع تسريح العمال، قوانين العمل لن تتركه يفعل ما يشاء، اتفق مع الأسطوات على زيادة الاحتجاجات ورفض الأجور المتدنية، والضغط عليه، ثم حدثوني لتكتمل الصورة، يعرفون أني طيب مسالم هادئ، ساذج لن يكتشف الحيلة، وعارف استطاع اللعب بي بكل سهولة ويسر، ما أسهل أن تلعب بفقير وأن تملأه بالأوهام كما تملأ البالونات بالهيليوم وتتركه يطير للسماء، حتى يهلك وحيدًا صريع الأوهام، والنهاية هي مئتي عامل

أصبحوا خارج المصنع بلعبة دنيئة، لقد حذرتني نجوى، لكن الغشاوة كانت أقوى وأشد.

بكت سلوى عندما سردت لها تفاصيل المؤامرة، لكن في النهاية ماذا نملك إلا الصمت، هل أستطيع حقًا الصمت بعدما كنت أداة رخيصة ساعدت في تشريد العمال؟ هل سأستطيع النوم مرتاح البال والضمير؟!

انتهت الإجازة وقمت صباحًا لأرتدي ثياب الكفاح ونضدت عني ثوب الهناء الرقيق الناعم، أخرجت من الدرج ساعتي القديمة فلن أُهلك الساعة الرادو في المصنع، سأتركها للمناسبات والأعياد، ولبست نظارتي المقاومة للشمس البنية الرخيصة، وسحبت الهاتف الصغير، هاتف التي تسمي نفسها الملكة، فرغ شحنه من زمن ولم أفكر في إعادة شحنه فلم يعد له حاجة ولم يعد لي أي حاجة عندها، فازت بالنجم المشهور ودعته لمخدعها، هو يليق بنهديها لا عامل بسيط مثلي يعمل بالمقهى، ضغطت عليه بقبضتي وكلي رغبة في أن أحطمه، لكن ارتخت قبضتي لتصبح لطيف من حنين مسني، رعشة عجيبة بدأت تسري في جسدي، إثارة ليست مفهومة، هذا الهاتف يمثل الملكة المثيرة للشهوة الغامضة المتناقضة، أحضرت الشاحن وقلبي ينبض بشدة ليس لها تفسير، منحته قبلة الحياة بجرعة كهربية مكنته من العودة للحياة مرة أخرى، لتأتني عشرات الرسائل بمكالمات فائتة من الملكة ورسالة

منها تريدني لأمر مهم!! انقلب حالي رأسًا على عقب، حاولتُ إثارة غضبي، الانتفاضة لكرامتي، أين الغضب والقوة؟ هل ستحن إليها؟ ألم نقل إننا لن نسقط مرة أخرى؟

ذهبت إلى المصنع أنا وسلمى بعدما انتهت إجازتنا، لكنا لم نذهب بمفردنا، فقد أخذت معي الهاتف "لعلي أحتاج إليه" تعجبت سلمى وسألتني عنه فقلت لها إن لي مال متبقٍ عند المرأة ولم أقبضه بعد.

صناديق خشبية كثيرة وكبيرة الحجم تملأ باحة المصنع، وعمال وخبراء أجانب يقومون بإخراج الآلات الجديدة من صناديقها لتثبيتها في أماكنها الجديدة، بعدما قام الخبراء بإعادة تصميم خطوط الإنتاج لتتناسب مع الوضع الجديد، العمال يتحركون بسرعة عجيبة لا مجال للتمهل، ها قد أصبحنا مصنعًا متقدمًا، حيث مالك واحد، والكثير من الآلات والقليل من العمال يخدّمون عليها، ربح عظيم، راحة أكثر، مجهود أقل، هنيئًا لصاحب المصنع وسحقًا للعمال.

-كيف حالك يا أستاذ وليم؟

-نحمد الرب يا باشمهندس، لا أحد مرتاح في هذه الحياة.

-هل حدث جديد في غيابي؟

-حدث الكثير وأهم ما حدث هو تعيين إدارة جديدة للمصنع بقيادة مدير عام ألماني الجنسية.

obeikan.com

يقال إن الأجانب لا يتفاهمون ولا يعرفون سوى لغة الآلات، لا رحمة ولا راحة سوى في أوقات الراحة المقررة حسب القانون، هاهاها وهل سيقومون برعايتنا كما يرعون الآلات، نحن أيضًا نحتاج لصيانة وترميمات، عمال ترتع فيهم الفيروسات والميكروبات، ومياه ملوثة وغذاء ملوث مسرطن، وسكن غير صحي، إن الفلاح الذي يملك حمارًا يرعاه بالغذاء والدواء كي يتمكن من العمل.

بالمساء أخذت سلمى في نزهة نيلية في مركب ذي أضواء ملونة كثيرة يأخذ خمسة جنيهات من كل راكب، يشغل موسيقى صاخبة، شباب وسيدات يقومون ويرقصون رقصات شعبية، ضحكنا وملنا نغترف من مياه النيل ونرش بها وجهينا.

وأثناء الرجوع قابلت صبحي، وهو عامل من العمال المستبعدين، رث الثياب منطفئ الوجه منكسر النفس.

-مر شهر يا باشمهندس ولم أعمل يومًا واحدًا، لقد خدعنا خدعة كبيرة ربنا منتقم، حسبي الله ونعم الوكيل.

-سأقول لك على سر يا صبحي لا يعرفه إلا القليلون، لقد اتفق المهندس عارف مع الأسطوات على تلك الخطة، لقد جاء لي الأسطوات وسردوا لي تفاصيل المؤامرة

ثار الرجل المسكين وبكى مثل الأطفال.

-والله يا باشمهندس أطفالي جوعى بالبيت.

-اسمع يا صبحي لو استطعت تجميع العمال المستبعدين سأحاول كشف خطة المهندس عارف وليكن ما يكون.

كانت سلمى الرقيقة تبكي من حاله وحال عياله، كيف لنا أن نهنأ بالطعام وعشرات الأسر من الزملاء جوعى؟

-ولكن يا سلمى ما سنفعله قد يطيح بنا لخارج المصنع، وقد يستعين عارف بمحامين كبار يكسبون القضية في النهاية.

-دع رزقك على الله، كيف نفكر في أنفسنا ونترك الجميع يذهب إلى الجحيم؟!

***

لم تمر إلا ثلاثة أيام حتى انتشر الخبر انتشار النار في الهشيم، حضر أغلب العمال المستبعدون أكثر من مئة وخمسين عامل على الأقل، ينددون ويصرخون، ويطرقون على البوابة الحديدية بالحجارة، تجمع عمال الأمن خلف البوابة وقاموا بالحديث من خلال مكبرات صوت، يطالبون العمال بالرجوع لبيوتهم واحترام العقود المبرمة، لكن العمال على حالهم يشتمون ويقذفون المصنع بزجاجات مليئة بمواد حارقة، كنا داخل المصنع لا نعرف ما يدور بدقة، حتى أنا لم أتوقع أن تسير الأمور إلى هذا النحو وبهذه السرعة، تخيلت أننا سنتقابل ونفكر معًا،

لكن يبدو أن الحاجة والغضب فجروا كل توقعاتي.

خرج محام من الشؤون القانونية ليتحدث معهم وكادوا يفتكون به لولا أن تمكن من الهرب، ثم بعد ساعة جاءت سيارتا شرطة وقام الضابط بالحديث معهم لكنهم كادوا يفتكون به، فتقهقر سريعًا حتى لا يحدث صدام دموي بينهم، كنت خارج المشهد تمامًا حتى جاء لي وليم عزيز يقول لي: إن العمال المستبعدين يطلبون أن أكون من يتحدث باسمهم.

-مع من أتحدث؟

-مع الشؤون القانونية.

-دعني أخرج لمقابلة العمال أولًا حتى أعرف ما يدور في عقولهم.

كانت الوجوه كالحجارة، سدًا عاليًا قاسيًا سينهدم فوق رؤوس الجميع، لن يفلت أحد، والعجيب في الأمر هو وجود الأسطوات المتآمرين!! العمال يصرخون بعنف ولا يريدون سماع أي كلمة فيها تهدئة، وبعد جهد بالغ سكتوا حتى نستطيع الحديث معًا.

-اسمعوا يا أخواني وأخواتي أنتم ضحايا مؤامرة خبيثة دارت بين المهندس عارف وخمسة من الأسطوات، هم الأسطى عطية وجمعة ورمضان وعبد الحميد ويسري.

تبادل الجميع النظرات وعلت الصرخات من الأسطوات والردود من العمال، وهجم عليّ الأسطى عطية مستجمعًا قوى الغل والغضب لكن

العمال حالوا بيننا.

-لن أتحدث باسمكم طالما كان هؤلاء الأسطوات بينكم.

انقض عليهم العمال يطردونهم وخلعت أكثر من واحدة نعلها وهجمن يضربن الخائنين.

دخلتُ لأجد وليم في استقبالي، ثم أخذني مباشرة للشؤون القانونية للتحدث مع المحامين لكني رفضت أي حوار يتم إلا مع المهندس عارف نفسه، فذهب سريعًا ورجع مبتسمًا.

-المهندس عارف في انتظارك.

اسأل نفسك قبل أن تسير هذه الخطوات ما هو دافعك، هل هي الرغبة في الانتقام، أم أنك ستساوم من أجل تنفيذ أحلامك القديمة على حساب الجميع كما كنت ستفعل.

وقف الرجل المترع بالثقة والحيوية والخداع، فتح ذراعيه واقترب مني يعانقني:

-كيف حالك يا رجل.. هاه هل أنت مستعد لمنصبك الجديد؟

كان لحديث العيون شؤون وشؤون، هو يحاول استكشاف مكنوني وقراءة أفكاري، وأنا أشاهد أداءه للدور بعدما اكتشفت آلاعيبه وخداعه.

-عارف بيه أنا سأتحدث إليك بما يريد العمال وهم بالخارج حانقون،

بركان به ملايين الأطنان المضغوطة من الحمم، ستتفجر حتمًا إن لم نستطع كسبهم.

-يا عماد رجوعهم مستحيل، لقد تخلصنا من الآلات القديمة والآلات الجديدة لن تحتاج إليهم ماذا سيعملون عندي؟

-لقد كشف لي أسطى عطية خطتك معهم لتقودوا العمال لهذا المصير المجهول.

-لن أنكر كل كلامك صحيح، لكن العمال في النهاية كانوا يستطيعون الرفض.

-كيف؟ والآلات كانت في الطريق، أنت تملك ألف حيلة لتحقيق أهدافك.

-دعك منهم يا عماد أنا سأتصرف معهم فكر أنت في مستقبلك؟

-سيدي دعك من هذا الهراء فليعود العمال للمصنع.. زود عدد الآلات، تصرف.

-اسمع أنت لا وقت لدي لأضيّعه معك ومعهم، ولن أشتري شيئًا، جزء كبير من ثمن الآلات اشتريته بقروض بنكية بفوائد كبيرة، إن لم تتصرف معهم ستكون أنت وزوجتك من المفصولين.

-انتهى الحوار إذًا؟!

obeikan.com

وليم جاء خلفي مهرولًا يحاول إثنائي.. إغرائي.. تهديدي، لا شيء سينفع اليوم لن أتخلى عن مبادئي مرة أخرى، خرجت للعمال وقلت لهم: "اعترف المهندس عارف بالخيانة ورغم هذا يرفض الرجوع في قراره".

ثاروا حانقين وصرخوا وسبوا ثم هدأ الضجيج، لكنهم عازمون على المكوث في مكانهم وفرشوا الملاءات أمام المصنع يعتزمون المبيت، دخلت إلى المصنع فإذ بالشؤون القانونية يستدعوني للتحقيق، وامتثلت أمامهم أجيب عن أسئلة لا آخر لها، يدعون أني من حرض العمال وقلت لهم إن للعمال حقوق وتم التغرير بهم وخداعهم من قبل المهندس عارف والأسطوات، وكانت النهاية أنهم طلبوا مني عدم الرجوع إلى المصنع لحين البت في أمري.

في اليوم التالي بدأت سلمى تتعرض للمضايقات في المصنع، ويتعاملون معها بحدة ويطلبون منها الكثير من العمل، مما لا تطيق، حتى رجعت البيت مرهقة باكية، ولا زال العمال على حالهم لابثين أمام المصنع يكتبون لافتات، معطين مهلة للمهندس عارف ليقوم بإعادتهم للعمل، حتى جاء الأمن مرة أخرى محاولين التفاوض معهم والحديث معهم بالعقل والمنطق، إلا أن الرفض مستمر والجميع يقولون لهم إن كنتم تريدون التحدث فعليكم بالمهندس عماد.

لا شك أن الصورة أصبحت مليئة بالفوضى والمؤشرات والتنبؤات،

ماذا يستطيع عارف أن يفعل معهم، وهل سيستسلمون وما هو مصيري في النهاية أنا وسلمى؟

obeikan.com

"السقوط الحاد في المتاهة"

يبدو أن الحكاية قد لفتت انتباهك أخيرًا سيدي، ألم أقل لك إنها مثيرة وتنتزع الدهشة من العيون، الآن ستقول إني بشكل ما ناقم أو حاقد على مترفي هذا البلد، لن أدفع عن نفسي هذه الفضيلة، فأنا في الحقيقة حاقد عليهم فعلًا، فهم من قادوها إلى هذا الفساد العظيم الذي نعيش فيه، قاموا بإفساد كل شيء الهواء والماء والطعام، ونحن وحدنا الفقراء نواجه أعاصير هذا الفساد بلا حول ولا قوة، لا أمل لنا في التعليم أو الوظائف الراقية ولا في صحة نتكئ عليها، لكن رغم هذا ليس بأيديهم مقاليد الأمور كلها، وليست الأمور جميعها تحت السيطرة فأحيانًا يحدث أن ينقلب السحر على الساحر، أو تطول النار أيدي الذين يلعبون بها، كان المهندس عارف على يقين أنه الإنسان الأذكى على الإطلاق، المخادع الأكبر على وجه الأرض، أعتقد أنه سيستطيع بعد أن نجحت خططه أن ينعم بالوضع الجديد، مصنع حديث قليل العمال، تخلص من جميع الأسطوات الذين يملكون الشخصية المزعجة المؤرقة، لقد فاز أخيرًا بكل شيء ولم يخسر مليمًا، حتى حالة التوتر والاحتقان بالمصنع لم تؤثر عليه ولم تؤرق باله، لديه علاقات كبيرة وكثيرة وأموال يستطيع الإغداق بها على المسؤولين،

لكنه أغفل أن الغضب الجامح لا يستهان به أيضًا، هل تعرف ماذا فعل منذ شهر تقريبًا ليكشف عن الوجه الأقبح لرجل المال الحديث، أرسل في طلب مدد كبير من الشرطة واستأجر بلطجية ومسجلين خطر وفي لحظة استثنائية توحدت القوى المتناقضة.. العسكر والحرامية، توحدت لكسر شوكتنا وتحطيم إرادتنا، وليعلنوا أن المنظومة الحديدية بخير وستستمر على رقاب الجميع، لا أحد يقف في وجه الرجل الكبير، هجم الفريقان متضامنين متكاتفين علينا، ضربونا بالعصي والقنابل المسيّلة للدموع والرصاص المطاطي وخراطيم المياه، والبلطجية أشهروا السيوف والسكاكين لكل من وقف في وجههم، الكثير منا هرب خوفًا وذعرًا، أما من صمد فأُخِذ لقسم الشرطة ليأخذ وجبة سمينة من التعذيب، كيف لفقير حقير أن يقف في وجه أولاد الناس، أسياد البلد، أنظر لهذه الصفعات ما زالت تاركة أثارها الدموية على رقبتي وقفاي، أما زوجتي سلمى فقد سقط حملها، وكان في أيامه الأولى، رمينا ثلاثة أيام ولحسن حظنا أنا كنا حينها في الحبس.

لا تتعجب فما حدث كان هو الفزع الأكبر، يقولون إنه في يوم قاتم توارت فيه الشمس تمامًا خلف الغيوم والأدخنة، قام الأسطوات المخدوعون بمحاصرة المهندس عارف في إشارة المرور التي بالشارع الرئيسي المؤدي للمصنع، كانت الساعة الثامنة صباحًا، شاهد الحادثة الكثير من العمال أثناء قدومهم للمصنع، كان يتحدث في هاتفه بينما يحرك

يده اليسرى بالسيجارة البنية، حاولت السيارة الفرار من الحصار ودهست الأسطى عطية وكسرت ساقه اليمنى، لكن الزحام حال دون نجاح محاولة الهرب، فهشموا زجاج سيارته ثم أضرموا النيران فيها وهو بداخلها، تفحمت جثته وجثة السائق المسكين، قامت الشرطة بحملة اعتقال واسعة للعمال، وهم الآن يواجهون مصيرًا مجهولًا، أما أنا فقد وجهت لي تهمة تحريض العمال، وما زالت القضية مستمرة، وما زلنا أنا وسلمى والعمال مطرودين، المصنع مرتبك في حركته لا أحد فيه يعرف مصيره سواء كان المهندسين أو العمال والمشرفين، فقط يحضرون كل يوم لكن لا يعملون، والخبراء الأجانب عادوا إلى بلادهم في الأيام الأولى بعد مقتل عارف بيه، هناك شائعات تقول إن أرملته تنوي بيعه لأعلى سعر ستسمعه فهي تكره الآلات، أعيش الآن من دخلي الزهيد من المقهى والإكراميات من الزبائن لكنها لا تكفيني أيامًا قليلة من الشهر، وأنا لا أعرف مصيري حقًا!

-.....

-لا، لا شكرًا يا سيدي، فأنا لا أقبل الصدقة وأكره العطف والشفقة، فقط حكيت لك حكايتي من أجل.. من أجل، آه كم أشعر بدوار عنيف، عنيف جدًا، أشعر بأن عقلي كقطعة ثياب في مرحلة الطرد المركزي في غسالة حديثة، الدماء تهرب من جسدي، يجف مائي، يتفصد العرق، ينهمر ينزلق يسقط مني، أشعر بأني أصفى.

ذلك الرجل ذو المعطف الأسود الصوفي، استمع لحكايتي كلها، احتسى ثلاثة فناجين قهوة مضبوطة، أنا أعرف جيدًا أنه أحد المترفين المتسببين في دمار البلد، لكن ماذا قد يريح قلبي غير الحديث إلى واحد منهم اعتبره مفوضًا عنهم جميعًا فأوصل لهم الرسالة كاملة من خلاله.

اصطحبني اثنان من العمال بالمقهى، بعدما تدهورت حالتي في نهاية حديثي معه، تشنجت وسقطت سقوطًا كاملًا، ترى هل سأراه مرة أخرى ليعرف نهاية تلك المتاهة، وآخر خطوات الذين يعيشون على حبل طويل لا ينتهي إلا بموتهم، كنت بين أيدي زميليّ ككتلة رخوة، كتلة لحم نزعت منها العظام والأعصاب والإرادة، أغمضت عيني أريد أن أغوص لأعماق الغرق في الظلام، لم لا يأتني الموت لأستريح، كرهت الضوء، الأعمدة المضيئة في الطريق، المصابيح المعلقة في أسقف سلم البيت، المصباح المضيء أعلى باب شقتي، والذي في غرفة نومي، صرخت فيها وفيهما لا يا سلمي أرجوكِ أغلقي النور إنه يحرقني، أصرخ أتشنج يقول زميلاي: "لا حول ولا قوة إلا بالله" ذهبا كموجة تنحسر عن الشاطئ بعدما ألقت خشبة محطمة من سفينة غارقة، انحسرت لتذوب في البحر الهائج مرة أخرى، ذابا خائري القوة والقلب والعقل، من أنا بالنسبة لهما؟ واحد منهما، رجل من المدينة سقط، ليس أول الساقطين ولا آخرهم، أشعر بعظام ذراعيكِ وقفصك

الصدري يحيطون بي، يصنعون حدودًا جديدة لي، حصنًا أختبئ فيه، تقرأين القرآن في أذني، تكبرين، وأصرخ فيكِ والجيران المنزعجون هرولوا مقتحمين المشهد العبثي، وجوه كالوحوش، يتصارعون لسحب نسيرات الهواء، رئتاي تسحب نسيرة أكسجين بلا جدوى، الهواء يتمزق ينفلت كامرأة تنفلت من المتحرشين، أمد ذراعي، أصابعي العشرة أخدش وجه الفناء، مخنوق مخنوق، أريد أكسجين ابتعدوا أرجوكم، جريت متخبطًا اصطدم بهم وأعود لعظام سلمى الباكية، لبسني جن نعم جن المدينة والزحام أتركوني، اطفئوا الأضواء إنها تعتصر مقلتي بقبضتيها الحديديتين، أناا!!، أنا!!!... هل أنا أسقط.. أسقط بقوة إلى الهاوية، هل تخلى عني الحبل أخيرًا؟ سعاا!!د، سعاد، هل أحد يسمعني هل تسمعيني يا حبيبتي؟ هل هناك أحد يسمعني، يا!!!ه أخيرًا الدنيا مظلمة، كل شيء مظلم أشعر بالراحة والصمت والثبات في الفضاء اللا نهائي في منطقة انعدام الجاذبية، لا أريد أي شيء غير سعاد.

***

سعاد تعالي يا حبيبتي لنعود معًا إلى بيتنا القديم، لنحكي الحكايات، سعاد وعماد يجلسان على غيمة قطنية وثيرة، تتأرجح بهما بين السماوات السبع، تطير حول العالم، تعالي نشاهد البحار والمحيطات الشاسعة بألوانها الزرقاء المختلفة، نشاهد الغابات الخضراء ذوات الشلالات نشاهد الصحراوات الناعمة النائمة في ليالي الخيال

والحكايات العربية، عانقيني يا حبيبتي ودعي خصلات شعرك تداعب وجنتي، تجنني كعادتها، أعطني يدك الآن أريد أن أشعر بحنانها وعطفها.

-ما هو حلمك الآن؟

أسمع صوت نجوى يحدثني تقول لي ما هو حلمك، حلمي أنا، أريد أن أرحل من المدينة، أريد أن أعيش في مكان رحب ليس به زحام، لا صراخ ولا وجوه عابثة ولا أبواق سيارات، لا دخان، وتكون معي سعاد وسلمى.

-أنت طماع.

-لماذا؟

-تريد أن تأخذ مني سعاد.

-أنت تملكين كل شيء، وأنا لا أملك أي شيء.

-دائمًا تقيس كل شيء بالمال.

عشت في عالم هلامي يمتزج بعدة عوالم مختلفة، الحلم، الموت، الكوابيس ولكني في النهاية عدت إلى الواقع، سلمى جالسة بجواري، الغرفة مظلمة، بصيص نور أصفر يأتي من الطرقة، عادت لها الحياة وأشرقت عندما رأتني أفتح عيني، وقعت على يدي تقبلها وتحمد الله،

يأتي من الردهة تلاوة القرآن بصوت هادئ رخيم، وبالصباح حكيت لها عن أحلامي بسعاد وحواري مع نجوى فقالت لي إن نجوى كانت تزورني كل يوم، وكانت تتحدث معي كلما فتحتُ عيني وأرد عليها لكني لا أذكر شيئًا حقًا، ثم جاءت نجوى وسعاد يحملان الطعام والفاكهة والعصائر، تهلل وجهاهما عندما شاهدا تفتح عيني وإفاقتي، أقبلت علي سعاد تجري ثم ارتمت تعانقني، آه ما أجمل أن أراكِ يا ملاكي الصغير، وبعد الغداء تحدثت إلى نجوى وهي تجلس بكرسي بجوار فراشي:

-سأحقق لك أحلامك يا رجل لكن بعد أن تفيق تمامًا وتستعيد عافيتك.

-كيف ستحققينها وما هي أحلامي؟!

-ألم تقل لي من يومين إنك تحلم بالبعد عن المدينة والضوضاء ألا تتذكر؟

-آه عندما كنت في الغيبوبة، فيما تفكرين قولي لي؟

-عندي أرض زراعية كبيرة في طريق إسكندرية الصحراوي أزرع فيها أشجار البرتقال والتفاح والمانجو، ستكون مسؤولًا عنها من أول الشهر.

-لكني لا أفقه شيئًا في الزراعة!

-لا يهم العمل عندي متكرر وبسيط، وهناك جدول مفسر بخدمة الأشجار بالمواعيد والأصناف، بالتدريب وبمساعدة العمال والخفير

ستتعلم كل شيء، ستنتقل للحياة هناك أنت وسلمى، في وسط الأرض فيللا كبيرة ذات ثلاثة طوابق سيكون لك الطابق الأرضي، وسأرسل لك سعاد كلما سنحت الفرصة أو نحضر معًا.

إنها سيدة الأمنيات التي تقوم بتحقيق الأحلام بلمسة من عصاها السحرية، ولأن الفرص لا تتكرر كثيرًا فلن أتأخر، قمت بعد يومين بلملمة ثيابي ودفتر صور لأمي وأبي وسعاد منذ كانت طفلة في المهد، جاءت سيارة نجوى بالسائق وفيها سعاد لتأخذنا إلى الأرض الجديدة، تحركنا والفرحة تغمرنا، أخيرًا خرجنا من الشارع وأخذنا ننسحب من المدينة ونخرجها من عقلنا وذاكرتنا، السيارة الآن تشق الصحراء، ساعة ونصف بين الرمال ولا أثر للدخان في السماء، تحسست جيب البنطال لأجد هاتف الملكة ما زال فيه، أشتاقُ إليها رغم كل شيء، أخرجته وكانت سلمى وسعاد نائمتين، ضغطت ضغطة طويلة على الزر حتى فتح الهاتف، إشعارات متكررة برسائل الشبكة ورسائل من الملكة، فتحت رسالتها الأخيرة وقرأتها

"أين أنت يا عماد أرجوك رد عليّ، أحتاج إليك، لو جئتني في أي وقت فبابي مفتوح لك، وسأكون ملكًا لك، محظيتك ها ها ها لا تتأخر".

ارتجف قلبي كثيرًا، إن لهذه السيدة سحرًا خاصًا، نظرتُ للرمال التي عكست ألوان الغروب، ثم فتحت زجاج السيارة واستنشقت الهواء النقي

ثم غمضت عيني تمامًا وألقيت الهاتف بكل قوتي وأنا أقول في نفسي:

"الوداع يا ملكة.. الوداع".

***

obeikan.com

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

obeikan.com